ابتكار الألم

قصص

محمد جعفر

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf

ابتكار الألم

قصص

طبع في لبنان

ابتكار الألم

قصص

محمد جعفر

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

ردمك 978-614-02-1579-5

جميع الحقوق محفوظة

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
9 شارع محمد دوزي برج الكيفان
الجزائر العاصمة
هاتف 0776616609
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيَّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

"سأله جواشيم عما يدفعه إلى نظم قصيدة ثورية بشكل يجعل فهمها مستعصيا على العمال. وأقلق الحادث سرجيو أسابيع طويلة، وقادته هذه الملاحظة إلى تغيير لغة شعره"

جورجي أمادو – أرض ثمارها من ذهب

المحتويات

تقديم: محمد الريماوي..... 9

صوت..... 19

الشك..... 21

الحاجز..... 31

القضية..... 37

الأعمى مبصراً..... 45

اِلتباس..... 57

لبن طازج..... 67

المرأة التي سقطت من غيمة..... 73

موعد خارج الإطار..... 81

صَاحِبُ ظِلِّه..... 87

الفحل الذي أكل قلبه..... 95

"ابتكار الألم"، قصص تضيء على المتاهة البشرية

محمود الريماوي

يا له من عنوان شيق: "ابتكار الألم" هذا الـــذي اتّخـــذه القاص الجزائري محمد جعفر عنوانا لكتابه القصصي. فالألم هنا وهو شعور أو انفعال يمتاز الكائن البشري بوعيه له، لا يقـــع فقط على ضحية، وليس مجرد قدر تعيس أو مفاجأة صـــادمة، ولكنه –ويا للغرابة– موضع بحث عنه واســـتدراج لـــه، وإلى درجة يتم معها اجتراحه، أو "ابتكاره" على حد تعبير المؤلـــف ومن دون الوقوع في غواية المازوخية "تعذيب الذات".

بين قصص الكتاب ليست هناك قصة بهذا العنوان الـــذي اختاره المؤلف لكتابه.. بيد أن التعبير يرد عنوانا لمقطع أول من قصة "المرأة التي سقطت من غيمة". وذلـــك في إيمـــاءة إلى أن المؤلف اختار الإحالة إلى نسيج الكتاب ككل، وإلى مواضـــع الكثافة التعبيرية والدرامية فيه. مستغنيا عن جعل أحد عنـــاوين القصص عنواناً جامعاً للكتاب. والقصة المشار إليهـــا تحمـــل عنوانا شاعريا، لكنها لا تنزلق إلى الشعر المجاني الذي حذّر منه

المؤلف محمد جعفر في مقدمته، إذ تقوم على بناء وأداء سرديين مُحكمين، وترصد القصة ظاهرة القسوة التي ما انفكت المرأة تنوء تحت وطأتها، فقد اختارت البطلة شريكاً لها واقترنت به، ولم يكن هناك ما يعيب الزوج سوى أن شقيق المرأة غير راضٍ عنه، وقد عزم منذ البدء على تزويجها بمن اختاره هو لها. يعمد الشقيق إلى ارتكاب جريمة قتل بحق الزوج البريء، فتواجه المرأة واقعا مأساويا يُطبق عليها. شقيقها بات قاتلاً وزوجها الذي أحبته هو القتيل الضحية. وأمام هذا الهول تلجأ البطلة إلى الانتحار بقطع شريان رسغها، لكنها "تخفق" في وضع حد لحياتها، فيتضافر عليها الألم الجسدي مع الألم العاطفي والنفسي، وهي بذلك وبدلاً من أن تضع حداً للألم، قد ابتكرت ألما إضافيا. وبطبيعة الحال فإن أحداً لا يسعى إلى الألم أو إلى التسبب به لنفسه، غير أن المؤلف أراد العبور من المعنى المباشر غير المقصود، إلى معنى أعمق هو المقصود، فالمجتمع برمّته هو من يبتكر القيود ويسوّغ العسف، ويراقب مجرى الحياة بسلبية وحياد كحال النسوة اللواتي يقمن بزيارة البطلة لعيادتها، لكن المناسبة الحزينة يجري اهتبالها من طرفهن للّغو والثرثرة وتزجية الوقت وحتى للإنحاء باللائمة على البطلة عوضاً عن تضامن الجارات القريبات معها. فيما البطلة وهي تواجه هول استلاب أبسط حقوقها لا تملك لمقاومة ألم فقْد الزوج الحبيب

سوى أن تبتكر ألمها الخاص، فباب المسرّات موصود بعد أن ألقت المأساة بظلالها الثقيلة عليها. وقد سعت الأم إلى تخليص ابنتها من أحزانها، بعرضها على شيخ كي يقوم بـ "عمل" يخلص ابنتها من آلامها النفسية المبرّحة، وبينما تهنئها الأم بسلامة الخروج من الشجن النفسي، فإن الابنة تجيبها وهي تغالب حزنها:

– "يا أمي لسوف ينتهي كل هذا، ويبدأ زمن هؤلاء!

قالت ذلك، بينما هي تضع يدها على بطنها. كانت وكأنها تشير إلى شيء ما. وربما إلى مضغة راحت تتشكّل هناك في أعماقها".

يحيل عنوان "ابتكار الألم" إلى عنوان ديوان للشاعر اللبناني عباس بيضون "نقد الألم"، فيما يشبه تناصاً يقف عند حدود العنوان، ولا يتعدّاه إلى ما هو أبعد، فثمة بون شاسع بين عالم الديوان على صعيد الرؤى والأداء التعبيري والذائقة اللغوية وعالم هذه المجموعة القصصية.

على أن المؤلف لا ينسج بقية قصصه على هذا المنوال من الواقعية الاجتماعية التي لا ينضب معينها، فثمة قصص يحفر المؤلف في دواخل أبطالها ممن يعانون اغتراباً متعدد المظاهر، فيما يبقى أثر الواقع ثاوياً ونابضاً في قرارة القصص وإن بغير صخب. ففي القصة الأولى من الأضمومة: "الشك"، يضع

الكاتب بطلته في متاهة من الشكوك القائمة على احتمالات أو سيناريوهات مفترضة ومتناسلة. تجد البطلة وهي زوجة رقم هاتف على قصاصة ورق في أحد جيوب ملابس زوجها. رقم لا يصحبه اسم أو ملاحظة أو أي شرح. محض رقم. وتتناهب الشكوك الزوجة ابتداء من الاحتمال "الأقرب للوساوس" وهو أن يكون الرقم لإحداهن. حتى أنها تعمد إلى الاتصال بالرقم، لكن أحداً على الطرف الآخر لا يجيب. فتأخذ في افتراض احتمالات شتى، حتى تصاب بالإنهاك الذهني والعصبي. وتنتهي القصة إلى أن تغض الزوجة النظر عن الأمر كله، بعد أن أمضت سحابة نهارها نهباً للشكوك وذلك خشية فقدان الزوج واهتزاز أركان حياتها.

بهذه الكيفية يسلط محمد جعفر الضوء على ما يعتري العلاقات الإنسانية ومنها الزوجية من "تعقيد"، فالزوجة لن تجرؤ على سؤال زوجها عن الرقم، وهو في الأغلب لن يجيبها بالجواب الشافي إذا سألت، وقد يستشيط غضباً لأنها "تنتهك خصوصياته". فيما لو كان الأمر معكوساً فلن يتردد الزوج في سؤال زوجته عن الرقم. فالأعراف السارية تبيح له ذلك، ولا يُفترض بالزوجة أن يكون لها خصوصياتها!.

وإذ تبقى العلاقات الإنسانية (وكذلك النفس البشرية كمسرح للتناقضات)، ميداناً رحباً وحقلاً غنياً لانشغالات

الآداب والفنون بها وبخاصة في حقول السرد، فـــإنّ القـــاص الجزائري محمد جعفر يدلي هنا بدلوه في البئر العميقة لأســـرار العلاقات الإنسانية. ففي قصة "موعد خارج الإطار"، تنتظـــر البطلة صديقها في الشارع وفقا لموعد مبروم بينهما، وكانت قد وصلت قبل حلول الموعد بقليل، وفي وقفة الانتظـــار تلـــك تتعرض لأشكال من المضايقات والتحرشات من طرف المارّة، بما يجعلها تخرج رويداً رويداً من جو الصّفاء واللّهفة على اللقاء بالصديق. وحين يحل هذا في الموعد وبغير تأخير، فإن البطلـــة تكون قد انتقلت إلى مزاج آخر هو مـــزاج التحســـس مـــن الآخرين بمن في ذلك صديقها الذي بدا شبه غريب أمامهـــا، وبدت عرى الصداقة وكأنما تعرضت إلى الاهتزاز وإلى شـــيء من التهتّك. وهو أمر يثير بطبيعة الحال اندهاش الصـــديق إزاء هذا "الانقلاب" المفاجئ. أما البطلة نفسها فترى مع نفسها أن شعورها بالابتعاد النفسي عن صديقها هو أمر طبيعي! من دون تفسير لذلك. غير أن الإضاءة الثاوية في قرارة الموقف تفيد أنه لا يمكن بناء علاقات إنسانية حميمة وطبيعية في بيئة "معاديـــة" تنكر إنسانية المرأة، وتتربص للتحرش بها تحت دعوى العادات والأخلاق الحميدة.

بعيداً عن ذلك، وفيما يتعلق بالتقنيات التي يســـتخدمها القاص محمد جعفر فإنه لا يتوانى عن الخوض في العلاقات التي

تجمع بين ما هو حسي وما هو عاطفي وما هـــو براغمـــاتي. فالسارد الذي يبتكر الشخصيات والمواقف يُصبح عرضـــة لأن يتحول إلى موضوع للسرد. في قصة "الفحل الذي أكل قلبـــه" نحن حيال بطل يقوم بمغامرات عاطفية لكنه مشدود في الوقت نفسه إلى مغامرات السرد والتزامه حيالها. حتى أن رفيقتـــه – وهي قاصة أيضاً– تتوسل العلاقات العاطفية من أجل الارتقاء الأدبـــي. ويتحول لقاءً ما بينهما في فندق، إلى مناسبة يتم فيها السعي لإنجاز أدبـــي. من دون أن تفتر العلاقة بينهما. والحال أن البطلة تروم من رفيقها الذي يحظى بمكانة أدبية أن يكتـــب مقدمة لباكورة قصصية تستعد لإصدارها، فيما هـــو منشـــغل ساعتها بإتمام كتابة قصة تعهد بإنجازها لمجلة أدبية وفق اتفـــاق بينه وبين المجلة. وحين يحدث اللقـــاء الحمـــيم بينـــهما فـــإن ارتسامات القصة تتبدى بوضوح في مخيلة البطل الكاتب، بما في ذلك عنوان القصة: الفحل الذي أكل قلبه، فيما رفيقته ترمـــي الوصال الجسدي والأدبـــي معا، مع رفيقها الـــذي أصـــابته الشهرة، ويتحقق لها ما تريد كما يبلغ هو هدفه. والرسالة: أن علاقات البشر باتت متشابكة يختلط فيها ما هو إنساني بما هو مصلحي.. والعلاقة لا تعود هدفا بحد ذاتها كما يُفترض بها أن تكون، بل هي كذلك مناسبة يتم استثمارها لإقامـــة حيـــاة جديدة في الإبداع، ولإنجاز أثر أدبـــي. مع ما يكتنف ذلـــك

من مبالغات ومن سخرية مضمرة حيال العلاقة التي تنحو هذا المنحى.. لكن تلك هي الحياة! أو هذا هو ما آلت إليه الحياة في تعقيداتها الجديدة كما تومئ القصة بذكاء.

وعلاوة على ذلك فإن أشباحاً حيّة لا تني تطارد شخوص القصص. في قصة "الحاجز" يشعر العائد إلى وطنه في حقبة التسعينات من القرن الماضي بعد غياب بالغربة والوحشة في وطنه، ابتداء من خبر في صحيفة يتعلق بذكرى عودة رئيس إلى وطنه (محمد بوضياف) وترأسه للبلاد ثم تعرضه للاغتيال، وسائق التاكسي الذي يراقب الراكب العائد ويتبادل معه أقل الكلمات وبحذر وتحفظ شديدين. ثم يطلب منه الهبوط قبل وصول هدفه لأن حادثا أمنيا قد وقع في عين المكان المستهدف، فيما شرطي حراسة يتشكك بهوية العائد ويستدعيه كي يطلب منه إطفاء سيجارته! وكأن العائد يسير في حقل ألغام حيث يشكل إشعال سيجارة خطراً داهماً.

وفي قصة "صاحب ظله"، فإن البطل رغم تمتعه بصداقات فإنه لا يجد صديقا يلازمه مثل ظله، الذي يتمظهر كقرين وكشبح في الوقت ذاته، حتى إنه يدفع عنه ثمن فنجان قهوة في المقهى، وحين يشعر البطل بالوحشة وسط سهرة يغادر رغم إلحاح الأصدقاء عليه بالبقاء، وهناك في الخارج وتحت جنح الليل تندفع مجموعة أشقياء للتعدي عليه وبغير سبب ويتعرض

لطعنة مدية، ولا يجد مُغيثاً سوى عابر سبيل يقوم بتغطيته بأوراق صحيفة، فيما هو ما زال على قيد الحياة!

بهذه الإطلالة على بعض قصص "ابتكار الألم" يتبين أن القاص محمد جعفر يواكب القصة العربية الحديثة من حيث التركيز على الشجون الذاتية لشخوص قصصه وهم في الغالب مهمّشون، والحفر في دواخلهم وتقصي تقلباتهم النفسية، ولكن من دون الإشاحة عن الفضاء الاجتماعي وعن البيئة المحيطة التي تضغط لحرمان الشخوص من أسباب الاطمئنان، بل على العكس من ذلك فإن هذه البيئة توفر عوامل جمة للقلق وإشاعة الإحساس بالمطاردة. وهي تيمة كبرى لطالما عكفت عليها القصة الحديثة منذ قصص زكريا تامر الأولى "صهيل الجواد الأبيض" قبل نحو ستة عقود، إلى النماذج المتأخرة التي تفيض عن أجيال المبدعين في مشرق العالم العربي ومغربه.

وما يضيفه محمد جعفر في هذه الأضمومة، هو السرد الواقعي الذي يبدو في ظاهره تقريريا مباشرا يتجه إلى قارئ راهن وحاضر، فيما هو في واقع الأمر سرد زاخر بالظلال والمعاني التي تموج في ثنايا السرد، أو تضيئها اللقطات المتتابعة لبؤرة الحدث ولكل ما يحِفّ بها عبر لغة مشرقة ودقيقة، لا محل فيها للتزيّد النصي أو الإغراق من الوصف، أو إثارة عاطفية "الميلودراما".

وبقراءة هذه المجموعة يتعرف القارئ على مبدع موهوب، يشق طريقه بأناة وثبات، وبخصوصية واقعية جديدة تستفيد من إنجازات السرد في العالم من حيث الإفادة من لغة الصحافة ومن اللقطات شبه السينمائية ومن كسر الحاجز "الوهمي" مع المتلقي. ما يجعل هذه المجموعة مدعاة للترحيب والاحتفاء بها.

صوت

من حوار مع الكاتب..

س: هل تعتقد أن الأساليب التعبيرية السردية الدارجة اليوم هي وليدة الابتكار والتجديد؟ ثم إلى أي مدى تراها تسهم في نقل هواجس وانشغالات الكاتب؟

ج: الرهان الأساسي في العملية الإبداعية – ومنذ البدايات – كان في كيفية القول. وإذا كان البحث عن إمكانات جديدة وغير مسبوقة بغرض الإمساك بتعقيد الوجود والظرف الإنساني لا يزال ضرورة لا مناص منها، فإن الإغراق في الذاتية سمة الأدب في العصر الحديث.

ولعل أبرز تجليات الذاتية اليوم أو سَقْطها تلك الشِعرية البغيضة التي تقوم على تجييش المشاعر واستفزازها عبر مجازات مفضوحة هي أقرب إلى هذر العاجز.. شعرية أشبه بجلسة تعذيب متقنة. الاعتراف فيها يكون من غير معنى، ويشير إلى تخلي الأدب عن دوره ومسؤوليته. ولأنه لا يمكن التأكيد على

فاعلية الأدب إلاَّ عبر التأكيد على جوهره، فإن الكشط والحفر في اللحظة ومحاولة الإمساك بها والتركيز على الجوهر بعيدا عن اللغو والوصف وما لا فائدة منه في استعراض غـــير مســـؤول للعضلات اللغوية والأدبية، هو الغاية متى كان المبدع واعيا بها حين الكتابة عنها. إذ يصير الوقوف وجها لوجه أمام بـــذاءة العالم الغرض الكلي من الكتابة الأدبية.

الشك

جرت العادة أن تفتش الزوجة في الثياب التي ستدفع بها إلى آلة الغسيل، خشية أن تكون بها أشياء مهمة يمكنها أن تتعرض إلى التلف والضياع. وبينما هي تفعل هذه المرة وقعت على منديل ورقي محشور في الجيب الخلفي لسروال جينز يلبسه زوجها.

كان المنديل مطوّيا بعناية فائقة، وحين فتحته انتبهت أنه يتضمن رقم هاتف محمول كتب على عجل بغير خط زوجها. حينها حملته ووضعته على الطاولة قرب السرير وعادت تكمل أشغالها، لكن لم يمض وقت طويل حتى عبرها خاطر مريب أسر إليها بأن المنديل يتضمن سرا ما. وأخبرتها هواجسها أن الرقم لا بد أن يكون لسيدة. فهل كانت تملك ما يعزز هذا الخيار؟

ليس غريبا أن يأخذ تفكيرها هذا المنحى. فهي كانت رهن مزاج عركته الظروف في غير صالحها، وذهنية تفكر

وتعتقد بوجود مؤامرة ضدها. ثم ها هي تعود إلى غرفة النوم لتأخذ المنديل بين يديها. تتلمسه وتقلّبه على كل جوانبه وتشمه بحثا عن أي رائحة عطر مميزة تؤكد ظنونها.

بدت عليها الخيبة حين لم تقع على غير رائحة المنديل المعطر. أيضا لم تكن مستعدة لأن تستسلم. قد يكفي المنديل الورقي والرقم الذي عليه كحجة دامغة. ولتتجاوز وساوسها رأت التالي:

1- أن تتجاهل الرقم وتهمله كشيء لا يعنيها مع الإبقاء على وساوسها وعدم قدرتها على التخلص مما يزعجها.

2- أن تطلب الرقم لتقف على صاحبه، مع احتمالين اثنين:

الاحتمال الأول: أن يكون المتصل به أنثى.

الاحتمال الثاني: أن يكون المتصل به ذكرا.

هذا مع غض النظر عما يدور في ذهنها إذا ما تحقق الاحتمال الأول، لكون هذا الاحتمال يتوفر على فرضيتين اثنتين عكس ما كانت تراه هي:

الفرضية الأولى: أن يكون الرقم لأنثى، وتكون هذه الأنثى عشيقة زوجها، وهي الفرضية التي لم تكن ترى غيرها وهي واقعة تحت الضغط.

الفرضية الثانية: أن يكون الرقم لأنثى، وتكون هذه الأنثى أي شيء آخر غير عشيقة زوجها (من الأقارب، زميلة عمل، سيدة مرتبط بها لأجل قضاء مصلحة ما..). وهي الفرضية التي ظلت محجوبة عنها لاندفاعها وهيمنة وساوسها عليها.

وحتى لا نستبق الأحداث نعود إلى الزوجة والتي قررت الاتصال لتقف على صاحب الرقم ومن يكون. حين همَّت أن تفعل وجدت نفسها أمام طريقتين لفعل ذلك:

الطريقة الأولى: أن تطلب الرقم باستعمال هاتفها مباشرة مع إمكانية أن يتعرف عليها الطرف الآخر بدوره.

الطريقة الثانية: أن تطلب الرقم باستعمال خاصية الرقم المجهول.

مالت إلى الطريقة الثانية. فعَّلت خاصية الرقم المجهول واتصلت، لكنها لم تتلق أي رد. كررت المحاولة ثانية مع نفس النتيجة. وانتهت إلى أن الطرف الآخر يتجاهل الرد غالبا لحساسية اتجاه الرقم المجهول. إنه حذر ويخشى التورط في المشاكل، ومثل هذا التصرف لا ينتج إلا عن أنثى. وهكذا وجدت نفسها في مصيدة أخرى ونهبا لوساوس جديدة.

محبطة وجدت نفسها تحتكم لخطة جديدة. وراحت تستعرض أمامها مجموعة خيارات قلبتها على مهل:

1- أن تترك المنديل على الطاولة، لتتابع تصرف الـــزوج حياله.

2- أن تأخذ المنديل وتخفيه في مكان لا يصل إليه الزوج، ثم ترقب ردود أفعاله، وهل سيسأل عنه.

3- أن تفاجئ الزوج أوَّل ما يدخل بسؤالها عـــن الـــرقم ولمن يعود. تحاول من خلال ذلك محاصرته والتضييق عليه.

4- بدل كل ذلك، يمكنها أن تسأل زوجها وفي صـــيغة مباشرة لمن يعود الرقم. وإذا لمست ما يريب طالبته أن يتصل بصاحبه في حضورها. هكذا فقط يمكنـــها أن تقف على الحقيقة كاملة.

راهنت على الخيار الأخير. وكان لزاما عليها لأجل ذلك أن تنتظر عودة زوجها من الخارج.

في هذه الأثناء راحت تستعرض شريط حياتها. كانت تلك عادة قديمة أدمنتها حتى أن الصور لكثرة ما قلَّبت فيها صارت باهتة لا لون لها.

بدأت مشكلتها أوَّل ما بدأت بأربع اكتشـــافات عنـــها تمخضت وتغذت كل وساوسها اللاحقة.

الاكتشاف الأول:

شغفت به لجاذبيته ولما كان يبديه لها من عاطفة. وجدت روحه أقرب إلى روح شاعر. ولا تزال إلى اليوم تحتفظ لنفسها ببعض من تلك الأشعار التي كان يراسلها بها قبل ارتباطهما، وإن وقفت على سرها لاحقا.

بعد زواجهما، وفي ذكرى عيد ميلاده قررت أن تهديه شيئا مختلفا. وهي تبحث وقعت على مجموعة شعرية لنزار قباني عنوانها "100 رسالة حب". لا أجمل من الشعر. هكذا قررت. لكن بدل أن تهدي إليه المجموعة خطرت لها فكرة. عليها أن تختار من هذه الأشعار قصيدة تكتبها له بخط يدها. وآمنت أنه بذلك ستصير هديتها أجمل؛ لكنها وهي تقلب الكتاب بين يديها تنشد قصيدة تشدها أكثر اكتشفت أن كل الأشعار التي كان يرسلها زوجها لها كانت مسروقة من الكتاب نفسه. وداهمها أوّل إحساس بالخيبة.

الاكتشاف الثاني:

لهذا الاكتشاف تاريخ سابق ارتبط بيوم عرسها. حين كانت تتصدر مجلس العرس اقتربت منها واحدة من المدعوات وأسرت لها في خبث وتشف، وهي تشير إلى إحداهن: "تلك هي التي من المفروض أن تكون الزوجة التي نختفي بها اليوم.

لكن القدر والظروف شاءا غير ذلك!".

عندما عرضت على زوجها ما سمعته أنكر. لكن ذلك الهاجس ظل يشغلها و لم يخفت. وراحت تتقصى حول الموضوع حتى تأكدت، عادت تواجهه ثانية. وأمام عنادها اعترف أنه كان على علاقة بـ (تلك). لكنه أضاف يقول إن ما حصل كان أيام المراهقة والطيش. ثم إنها اليوم متزوجة، فكيف ترهق نفسها بما مضى وانقضى؟

وأما ما نغص عليها حياتها أن الفتاة لاحقا تطلقت من زوجها، ورجعت إلى بيت أهلها. حينها لم يكن قد مضى عام على زواجهما. وعادت لتمتلئ بهواجسها القديمة. وكانت هذه المرة أمرَّ وأنكى. ففي ظل امرأة مطلقة يصبح كل شيء واردا. وبدأت تشعر بالمهانة وبأنها مخدوعة.

الاكتشاف الثالث:

لم تعرف العاطفة قلبها إلاَّ في بيت الزوجية. وقدرت إخلاصها لزوجها أملا في حياة سعيدة، وإن كانت بذرة الشك الخبيثة لم تمنحها راحة البال.

بعد إنجابها أوَّل مولود لها كاشفها زوجها برغبته في أن تتوقف عن العمل بداعي تربية الطفل. حينها قالت له بصريح العبارة إن عملها خط أحمر. كانت قد قررت المواجهة. إما

نزاع لأجل حريتها أو طاعة عمياء. ولما رضخت لمطلبه عرفت أنها ستعيش ما تبقى لها من عمر وهي تنشد راحة مخدوعة. سلَّمت مكرهة بعدما وصل الشقاق بينهما إلى الانفصال. وكاد الطلاق أن يكون بيِّنا لولا تدخل والدتها التي أقنعتها بالعدول عن خيارها مؤكدة لها أن سعادتها في بيت زوجها. وكانت تلك نكسة قسمت ظهرها.

الاكتشاف الرابع:

حاولت أن تدافع عن ماضيها في ظل حاضر ليس فيه من أحلامها شيئا، وعن وجودها الذي يسير إلى العدم. ما يزعجها هذا الزوج الذي لا يسعى إلى فهمها مرددا كل مرة: لقد أصبحت زوجة. لم تعودي شابة. أنت الآن أم.. ولا يعني هذا إلاّ مجموع التزامات جديدة، كما يعني أيضا أن تتقبل وضعها وما آلت إليه.

الجميع يريدها أن تضحي بأحلامها وآمالها. يرغب في أن تحمل صليب الآلام والأحزان وحدها. أن تنسى حقوقها وتكبتها وتمنح ما لها من حقوق لزوجها وأولادها. وفي خضم ذلك استغرقتها الوحدة وأعباء البيت، كما بدأت تترهل وتذوي. ولم تجد من تفسير لفتور عاطفة زوجها اتجاهها، فغلبتها الوساوس وظنت الظنون جميعها. مع كل تضحياتها

سيظل قادرا على تجاوزها. بذلك كانت تسرّ لنفسها. وبقيت هذه الجملة مسمارا يدق رأسها.

مع الوقت زادت عصبيتها. لا شيء عاد يعجبها. وصارت تغضب وتنفث غضبها في وجه زوجها لأدنى سبب. تجد في ذلك تنفيسا لوحدتها ولبقائها في البيت كأي حلّة مركونة فيه. كما أخذت تعاتبه كلما تأخر في العودة أو بدرت منه رغبة في السهر مع أصدقائه أو السفر. ومآخذها عليه كثيرة، لكنه كان ينتهي إلى إنكار كل ما كانت تنسبه إليه. ولم يكن يراها أكثر من متحاملة لها قائمة من التهم جاهزة لكن دون دليل واحد. وأقصى ما كانت تأمل فيه حينها دليل، ليس لغرض استغلاله حجة ضدّه، بل كسبيل يؤكد وساوسها ويثبت لها أنها امرأة مخونة وخائبة.

الآن، وهي تستعرض ماضيها شعرت بأنها هشة، لم تعد تقوى على التحمل أكثر، كانت تشعر بالاختناق وكأن هناك جدرانا أكثر بشاعة ووطأة من جدران غرفة نومها تنبت من العدم وتضيق عليها وتدفعها إلى الصراخ والبكاء.

ما حياتها إلاّ وهم استطال حتى حسبته يغنيها. اكتشفت لاحقا أنها وحيدة وحدة تنبذها ولا تريدها. وما يذهلها كيف عادت تتقبل وضعها!.. أليس بقاؤها في البيت وانتظارها لعودة الزوج تأكيد على خنوعها؟ ثم كيف لا تفكر في حسم أمرها من الآن؟

ووجدت نفسها تفكر في:

1- أن تقطع علاقتها نهائيا بزوجها وتطالبه بالطلاق.

2- أن تتريث. تحاوره وتسمع منه مع خيار محسوم.

3- أن تتريث. تحاوره وتسمع منه مع خيار مفتوح.

4- أن تتصرف كأن لا شيء حصل.

لكن هل كانت قادرة على الحسم؟

كانت وهي تتأمل خياراتها لا تني تسأل كيف تتخلص من ربقة الاستكانة والخنوع؟ حقا، هي لا تدري كيف يتجاوز الإنسان وضعه. وخصوصا إذا ما وجد نفسه عالقا في بئر عميقة ومعتمة. تدرك أنها تحوَّلت بالتدريج إلى ما هي عليه الآن، وإلّم تعد تذكر تلك الطريق الطويلة التي قطعتها أو أجبرت على الخوض فيها. وواضح أن القرار الذي ستنتهي إليه له علاقة مباشرة بما أضحت عليه لا بما كانته أو طمحت أن تصيره. إنه يمثلها في الحاضر، لكن ما كان ليمثلها قبل اليوم أو يمثل أحلامها.

في خضم صراعها تناهى إليها طرق على الباب. وأدركت أنه حان وقت عودة أبنائها من مدارسهم. لذلك قامت فزعة تمسح دموعها، كما أخذت نفسا عميقا وهي تستعد لتكون تلك التي بات يعرفها الجميع. حتى أنها راحت تعاتب نفسها. ماذا دهاها لتسعى إلى خراب بيتها؟ لا يهمها إذا ما كان

زوجها يخونها خارج البيت ما دام أنه سيعود آخر الليـــل إلى حضنها. عليها أن تقبل بواقعها على علاته وإلا فإنه لن يستمر. وما تخشاه أن تنقلب حياتها رأسا على عقب لتجد نفسها أمام واقع آخر مليء بالتعقيد والمفاجآت.

إنها وبأي حال لا تريد أن يختفي زوجها من حياتهـــا إلى الأبد، لا ترغب في أن تجد نفسها ذات يوم على السرير وحيدة دونه، لا تريد أن يحصل هذا. كما أنها موقنة أنها لا تحتاج إلى شخصه لكنها تحتاج إلى حضوره. هذا الحضور الذي يعني لها الكثير في بيئة لن ترحمها إذا ما هو غاب تحت أي ذريعـــة أو ظرف. وحين سارت إلى الباب تفتحه كانت متلهفة إلى لقـــاء أبنائها وتقبيلهم. كذلك شعرت بالشوق إلى زوجها. شـــوق يعزز احتمالا واحدا لا غير، ويلغي جميع الاحتمالات الأخرى.

الحاجز

في الصفحة الرئيسية لصحيفة الأخبار التي اقتناها بطلنا أوَّل ما نزل بالمطار ورد التالي:

تمرّ اليوم الذكرى الثانية على عودة الرئيس محمد بوضياف إلى الجزائر بلده الذي عاش منفيا عنه ما يزيد عن 27 سنة. محمد بوضياف أو سي الطيب الوطني أحد قادة الثورة الجزائرية. تم تنصيبه في 16 يناير/ كانون الثاني من عام 1992 رئيسا للمجلس الأعلى للدولة. اغتيل في مدينة عنابة يوم 29 جوان/ حزيران من العام نفسه على يد ضابط بالحرس الرئاسي...

***

هنا يخمد الشوق قليلا وتهمد الروح على أمل لقاء قريب. تستكين هواجسه بعدما وطأ أرض الوطن أخيرا، وإنّ في الصحافة أخبار بلون الشؤم لا تبشر بخير.

خرج من المطار في جو تكتسحه البرودة والرطوبة. أشعل سيجارته الأولى، ثم حمل رأسه إلى السماء يتأملها، وكانت تدفع إليه بإحساس خفي يبثه أن الحال لن يلبث كذلك، وأن هناك عواصف آتية سيكون مسرحها الليل بطوله. واستطاعت نجمة قطبية اكتشفها معلقة في السماء وحيدة أن تبدّد بعضا من مخاوف نفسه المثقلة.

استقل سيارة أجرة كان صاحبها صموتا على وجه غريب. لم يسأله إلاّ عما اعتبره ضروريا. أين يريد أن يذهب؟ أين يريد أن ينزل؟ وحتى عندما بدا مستاءً لما ذكر له العنوان، فإنه لم يتأخر في حمل حقيبته والدفع بها إلى صندوق السيارة الخلفي.

كان واضحا أنه مشغول بمراقبته مع ذلك. هذا ما لاحظه عليه طول الطريق. ضبطه ينظر إليه عبر المرآة العاكسة أكثر من مرّة، حتى إذا حاول مواجهته كان السائق يرتد ببصره غير قادر على الثبات.

حاول أن يخمّن ما وراء نظراته، لكنه ما لبث أن انشغل عنه بتأمل المدينة. راح يتابع تفاصيلها من خلف الزجاج كمن يدعي معرفتها. تستفزه الذكريات وهي تعود إليه ضاجّة فكأنها لم تخفت يوما، وإن ظلت ملامحه جامدة وكأن لا عاطفة تأسره، فيبدو لا هو فرح بالعودة ولا هو متأسي منها.

كان يعتقد أن يجازف بعودته. وكان لا يني يسأل نفسه هل لا زال هناك من يذكره؟ وهل سيتعرّفون عليه؟ وواضح أنه قريبا سيقف على أجوبة لأسئلته الكبرى، والتي ظلّ يردّدها ما ينيف عن ثلاثين سنة، هي المدة التي قضاها في ديار الغربة.

عاش في وهم أنه مغضوب عليه. مطارد ومنفي. حتى إذا جرب العودة جرت الأمور بسلاسة ودون معوقات. لم يلفت اسمه أحداً. لا شركة الطيران ولا شرطة الحدود وكأنه بات اليوم مجهولا لدى الجميع. كما أنّه لم يعرف هل عليه أن يحزن لذلك أم يسعد؟ ثم ألم يكن هذا ما يعوَّل عليه من أجل عودة ميسورة ومن دون منغصّات؟

كانت الساعة قد تجاوزت منتصف الليل عندما توقفت سيارة الأجرة أمام حاجز عسكري للمراقبة يقوم على مشارف المدينة القديمة. وكان الجوّ لا يزال بارداً، وأخذ العسكري ينفخ في يديه يدفئهما وهو يطالبهما بالوثائق. وراقب أوراقه مدققا فيها ثم تفحّص وجهه بعناية، وأردف:

– يجب الحذر. كان هناك إطلاق نار قبل قليل..

وهتف السائق: – ربما عليَّ ألاَّ أتقدم أكثر.

كفاه ما قام به لأجله كزبون. سأله عن أجرته، ونقده إياها مع إكرامية مناسبة ثم نزل دون أن ينقم عليه محترما فيه

خوفه. ونزل السائق في أثره ليدفع له بحقيبته. وبعـــدما فعـــل ركب وأقلع كمن يهرب.

أشعل حينها سيجارته الثالثة. وراح يحرقها وهو يتقـــدم باتجاه المدينة القديمة. لكن ما إن تقدم بضع خطوات حتى انتبه لصوت جهوري يطالبه بالتوقف. كان ذلك صوت العسكري نفسه الذي دقّق في أوراقه. هذا ما قدَّره.

التفت متوجسا. كذلك سيطر عليه الرعب لأوّل مرة وهو يرى العسكري يتقدم نحوه بخطى سريعة وســـلاحه باتجاهـــه. تصلب ووقف موتوراً. لم يعرف كيف يتصرف. وتساءل هل عليه أن يرفع يديه دليلا على مزيد من الامتثال؟

حين صار بينه وبين العسكري مسافة خطوتين، طالبه هذا الأخير بأن يرمي سيجارته. واستجاب دون تفكـــير. رماهـــا يتنصل منها بينما عفسها العسكري بكعـــب حذائـــه وقـــام يسحقها، وبعدها خاطبه قائلا:

- الآن يمكنك الذهاب..

الآن أصبح في الأتون. ليس خائفا وإن اعتراه التردّد وهو يطرق دربه القديم الذي لا يزال على عهده به مضعضعا وتالفا.

لا شيء يموت، وكل شيء يبقى لابدا هنـــاك في العمـــق ينتظر فرصته. هذا ما يؤمن به وهذا ما يراه. وهـــو وإن ظـــلَّ طول مدّة غربته مشغولا بأن يبرّر لنفسه أسباب هجرته، فإنـــه

سيجد نفسه مضطرا – وبعدما عاد – أن يبرر للآخرين أسباب عودته.

كانت قد بدأت تمطر. ومضى في خطوات متعجلة ومرتبكة هذه المرة. وقام يترصد أدنى حركة غادرة يمكنها أن تأتيه من الظلمة التي تكتنف المكان من حوله. ظلمة تشبه حكايته الباقية.

القضية

في ذلك الصباح البارد استفاق الكاتب معكّر المزاج. ولأن التدفئة سيئة عاد غير راغب في أن يتزحزح من سريره.

بقي على ذلك الوضع حتى حضرت القهوة إلى فراشه شربها على مهل. أخذ أيضا يعبث بجوّاله. عرَّج على صفحته في الفايسبوك. لفت انتباهه إعلان يخصّ جائزة إبداعية عربية. دقق في تفاصيله، وحفزته قيمة الجائزة الهائلة على المشاركة فيها.

يجب التنويه بايجابيته. فكاتبنا لم يعتره الشك للحظة في أن ما يعتزم الخوض فيه صعب أو محال المنال. ردّد: لا أحد أفضل من أحد كتعويذة، ثم نادى على قوة إرادته وأسَّر إليها أنه قد حانت ساعة الامتحان العظيمة.

قفز من سريره، وطوَّح بنفسه بعيدا عنه. يجب أن يكف عن الاستهتار بوقته؛ كما عليه أن يطعنه في دبره حتى يستطيع التخلص منه.

لم يكن يملك مكتبا يليق بعبقريته، فأصرّ على نقل طاولة المطبخ إلى غرفة النوم. وغير عابئ بالفوضى التي راح يحدثها وبإقلاقه للجيران، قام يجرّ طاولة منخور خشبها اقتناها قبل زواجه من سوق الأثاث المستعمل. ويَذكرُ أنها لم تستقم و لم تعد صالحة للاستعمال إلاَّ بعد أن غرز في جذعها نحو عشرين مسمارا.

ما إن استوى جالسا إلى طاولته حتى استدعى زوجته. لما وقفت أمامه، بادرها بالسؤال. هل تعرفين ميرتيدس؟

رغم الشهادة الجامعية الرفيعة التي تحوزها، بان عليها الجهل. وحاول إدهاشها فقصّ عليها حياة غابو العظيم وزوجته ميرتيدس كما حصل وقرأها ذات صيف حار.

توخى أن يجعلها تخرج بفكرة أنه لولا تلك المرأة النبيلة ما كان لصاحبه أن يكتب روائعه التي أبهرت العالم. كما أنه عليها أن تستلهم مما حدّثها به حتى لا تطول قرون الجهل لديها. والعبرة بالخواتيم.

بدورها عليها أن تكون له سندا. ويعدها أنه لن يكون بخيلا معها غدا حين يصبح ذا شأن وصيت. وعلى فرض بما سيكون طلب من مديرة أعماله أن تعرّج توًّا إلى مطبخها، وتعدّ له فنجانا آخر من القهوة المعتقة يساعده في إلهامه. وهذا ما باشرته على الفور. بل إنها واقتداءً بميرتيدس قرّرت أن تطبخ لزوجها الكاتب غداءً يليق بمقامه.

فكّت عقدة منديل كانت تدسه في الخزنة بين طيات الملابس. وسحبت في حرص مبلغا رأت أن تضحّي به معوِّلة على شراء نصف رطل "كفتة" مجمَّدة سعرها بنصف سعر اللحوم الطازجة.

في تلك الأثناء خلا الزوج الكاتب إلى نفسه. راح يشحذ قريحته متوَّسلا مَنَّها. ولم يكن يرضيه إلاَّ أن يقف على القمة ومتوّجا بين كبار المنافسين. وأما المدعوون فسينحنون إكبارا لعبقريته الفذّة. وفي كل الأحوال هو ليس بغافل. ومنوط به أن يتعامل مع عبارات الإطراء بحذر شديد. إذ يدرك أنه سيولد له حسّاد وناقمون من ساعتها.

ثم هل عليه أن يطلع زوجته برغبته في الادخار ابتداء من الشهر الجاري حتى يتسنى له ابتياع بدلة جديدة تليق بمقامه يوم يعلن عن اسمه فائزا بالجائزة الكبيرة؟ يعرف أنها ستنغص عليه، لكنه أيضا يمكنه هجرها متى صار في عداد الكبار والممجَّدين. عليه ألا يلهيه شيء عن قضايا العالم المصيرية؛ كما يجب ألا يقف عائق أمامه يسد عليه طريق المجد.

سيجوب العالم، وسيكون له في كلّ أرض ينزل بها متابعون مولعون به. سيعاملونه كنجم. وفي مهرجانات القراءة التي سيحضرها سيوقع لقرائه عشرات ألاف النسخ. يريدهم طابورا طويلا تصوّره وتحصيه الصحافة.

سيؤكد أمام الملأ أن كاتبا واحدا مميزا قادر لوحده أن يغير خريطة القراءة في البلدان التي يقال عنها إنها لا تقرأ. وربما حينها فقط سيتسنى للمسؤولين في بلده أن يلتفتوا إليه، هو الذي لم يعترفوا به يوما، وظلوا يبخسونه حقه لسنوات طويلة.

هل سيثور وينتقم منهم حينها؟.. لا، أبدا. فليس هذا من شيمه. سيصر على مقابلتهم بالتواضع، وسيعاملهم بحكمة زائدة.

حدَّث نفسه، الأفكار متاحة للجميع. وله أن يتصيّد منها ما هو مناسب. وحملق داخله مفكرا. عليه أن يملك مهارة وخِفة القط ليتصيد ما يصلح منها. ولم يكن يقصد بأي حال من الأحوال ذلك القط الأسيان الذي يعيش وسطهما، هو وزوجته. فمثله لا يصلح لغير التمسح برجله ومضايقته وطرح برازه أينما حلَّ.

لم يكن قد حدّد بعد الموضوع الذي سيخوض فيه. يريد أن يكتب ما هو جدير وملفتٌ للانتباه. كذلك يجب أن يأسر لجنة التّحكيم قبل القراء.

عليه أيضا أن يستلهم مما هو جريء ومثير. كما لن يسعه أن يعري واقعه ويفضحه إلا إذا تحرر من خوفه. هكذا يكون الإخلاص للكتابة. القرّاء سيفهمونه لا محالة. إن لم يكن اليوم

فغدا. لكن ماذا عن لجنة التحكيم؟ ربما عليه أن يقر بأن تشذيبه لبعض ما يكتبه ضرورة أيضا ولا مفر منه، فشجرة البرتقال لا تطرح ثمارها ما لم تشذب أغصانها ويعتنى بها. والكاتب الحقيقي هو الذي لا يسمح لنفسه بالانحدار إلى حيث يغرق أصحاب العري والتهتك.

كان على معرفة جيدة بالوسط الثقافي، كما كان على اطلاع بيِّن بالنصوص التي نالت الأهلية في السنوات الأخيرة أو بتلك التي انتصبت متوَّجة في عديد الجوائز. وراح يعدد الموضوعات التي تستحق. ورأى أن مشاكل الحروب والهجرة، وقضايا اللاجئين والمنفى، ومسألة التطرف والتعصب تكاد تكون الأثيرة لدى جموع الناجحين.

بعد مدّ وجزر قام ينتهك بياضات الأوراق المرصوفة أمامه. فعل ذلك دون كلل. وراح يرسم عليها أحرفا ثم كلمات فأسطرا، أخذت تتدفق في غزارة ليس كمثلها غير غزارة أمطار ليلة البارحة، والتي فضحت هشاشة البيت الذي يسكن فيه.

لم تكن القضية سهلة. استنفدت منه الكتابة الكثير من الوقت، كما سخر لها علبة "نسيم" كاملة. أهدر عشرين سيجارة دون أن ينتبه. ومع ذلك فإنه عندما أعاد قراءة ما كتبه اغتم. لم يرقه أبدا ما سوّده.

أي خيبة هذه؟ أم أنها اللعنة تطارده؟ ثم هل مصـــيره أن يظل على الهامش نكرة لا يشير إليه أحد؟

عزا فشله لمشاعره الجامدة. إنه لم يشعر كفايـــة بمعضـــلة أبطاله. وراح يخاطب نفسه بعبارة لطالما سمعها تتردد في الوسط الأدبـــي. الأهم أن ترفد نصك من خلال النظر إلى داخلـــك، كما يجب أن تستلهم من تجاربك الشخصية.

حاول إصلاح ما يمكن إصلاحه من كسور وأعطـــاب. واستمر كذلك لأكثر من ساعتين، لكنه عاد خالي الوفاض. لم يقتنع مجددا بما انتهى إليه. ولعل القضية كلها في أنه لم يعش!

على أثر ذلك داهمه شعور بالانقباض كاد أن يتحول إلى مصدر للتعاسة لولا أنه قام يستنجد بزوجته ثانية. طلب منـــها أن تطلع على المسوَّدة. وكانت رغم مكوثها في البيت لســـنين طويلة لا تزال مولعة بالكتب، كما كان يراهـــا بـــين الحـــين والآخر تقرأ. فلم يكن يرضى بأن يرتبط بامرأة جاهلة. هـــذا أيضا واحد من خياراته الملهمة.

ما إن انتهت من القراءة حتى طالبها برأيها. هزت رأسها يمنة ويسرة لا تدري ماذا تقول. ثم خاضت مرغمة في كـــلام غامض هو صنو الخوف. الخوف طبعا على مشاعر زوجها. ثم أنها تمكنت من مخرج لمعضلتها لاحقا، وذلك عندما سألها، هل تعتقدين أنه ينقصها شيء؟

حينها تهلل وجهها. عادت فأكدت له أن القصة جيـــدة، لكنها تظل في حاجة إلى بهار وملح.

ما بالها تحمل معها مطبخها إلى عالم الكتابة! وكأنـــه لا تكفي رائحة الطبخ التي تفوح منها؟.. هكذا حدث نفســـه، فلطالما اعتادها رزينة.

كان قد أغفل، وبسبب مشاعر الإحباط التي تملكتـــه أن البهار والملح أوردهما هنا كمجاز لما هو أكبر. وسايرها يقول، يمكن جدا!

عزّز هذا ثقتها في نفسها، كما وخوَّل لها أن تخـــوض في خطبة عصماء. قالت بعد ذلك كلاما خطيرا لا يقـــدر عليـــه حتى فطاحلة النقد.

.. إن ما كتبته لا يتضمن تلك الخصوصية الـــتي تمنحـــه التفرد، وهو لا يخضع لمنحى محدّد. وهو هيولي وملبد. يقـــول كل شيء، ولا يكاد يقول شيئا في الوقت عينه. وعليـــك أن تفكر كيف تستطيع أن تمنحه ما يدل عليه. وأما إذا ما تفضلتَ بطرحه جانبا فسيكون أفضل..

يمكنك أيضا أن تبدأ مرة ثانية. ولم لا تكون قصتك الجديدة عن فلسطين مثلا، ما دمت تهتم لنص يتمثل همّا وقضية.

كثيرا ما كان ينقم عليها. وغالبا ما أعلن عن تذمره ويأسه منها. لكن عليه أن يعترف هذه المرة أنه أمام ميرتيدس أخرى.

ولا يمكنه إلاَّ أن يسعد بامرأة مثلها!

وقرر أن يجازيها بهدية ثمينة يعدها بها متى فاز. كما يمكنه أن يصر على قطرها معه إلى حفل تتويجه، ويمكِّنها كما لم تحلم يوما من أن ترفع هامتها مزهوَّة بعلاقاتها الجديدة التي ستكوِّنها مع زوجات خيرة الكتّاب. وهنّ أرقى بكثير من جارات النحس ونساء حيهم التعيسات.

كذلك هذه المرة لن ينغص عليه سعادته جاره الذي يملك سيارة ورصيدا في البنك. آن له بدوره أن يكون من المحسودين. والأيام دول.

ستحقق تحفته الأدبية التي سيكتبها عن فلسطين صدى طيّبا، كما أنه سيفحم لجنة التحكيم ويجعلها في حرج كبير إذا ما حاولت أن تسعى بالجائزة إلى سواه. وله مِن الآن أن يتدبر كوفية فلسطينية مناسبة يضعها شالا حول رقبته، وذلك حين يصعد المنصة فائزا تدليلا على تعاطفه وإخلاصه للقضيّة.

الأعمى مبصراً

كانت زميلة دراسة حصل أن جمع بينه وبينـــها الحـــب. لاحقا افترقا، وظلّ طول مدة الفراق يحاول تقصّي أخبارهـــا، لكن مُنيت جميع محاولاته بالفشل. و لم يعد يرِد بخلده أنه سيعود ويلتقي بها يوماً.

الآن، وبعد سنوات عديدة ها هو يقف أمامها من جديد (ثلاث سنوات بالضبط، فصاحبنا دقيق في حساباته، ولا يمكنه أن يخطئ استنادا إلى مراجعات عديدة لا يمكن الخوض فيها في الحين، وإن كان القارئ سينتهي إليها لا محالة مـــتى واصـــل القراءة)[1].

ألفى نفسه وسط حفلة تخرج لبى الدعوة إليهـــا مرغمـــا ومحرجا. وما فتئ يسأل نفسه طول الوقت (وحتى بداية قصتنا طبعاً) عن السبب الذي أوجده هنا. فلطالما اعتقد أنه لا ينتمي

(1) كسر الإيقاع – هنا، وفي هذا النص تحديدا – مقصود حتى لا يحصـــل الاندماج. إنه شكل من التغريب كذلك الموجود في المسرح.

إلى مثل هذه العوالم، كما لا يمكنه أن ينسجم معها بأي حال من الأحوال. (إذا لم تقتنع عزيزي القارئ بجو الحفلة لك أن تقترح ما شئت: عرس، ختان، ليلة رأس السنة، عيد ميلاد، دعوة على المسرح أو السينما، ندوة.. ما يهمنا في الأصل هو الجمع بين البطلين في بيئة واحدة حتى يحدث الاصطدام وتبدأ قصتنا والتي هي إلى الآن لم تبدأ بعد. اعتراف صغير لك طبعا: لو عرفت كيف أتخلص من كل هذه الديباجة لأبدأ قصتي لفعلت، لكن كيف يمكن ذلك وأنا محكوم بعناصر القصة.. تلك العناصر التي متى تجاهلتها كنت عرضة لنيران النقد والنقاد؟)

انشغل بمراقبة الحضور. يراهم وهم يجتمعون، يتنفسون، يُسرّون عن أنفسهم ويستمتعون.. وبينما هو كذلك لفت انتباهه وجه بدا مألوفا لديه. تأمّله يدقق النظر فيه. ومتى فعل أمكنه أن يتعرّف على صاحبه.

أوَّل ما لمحها عرفها. والتهبت الذاكرة بعدما طفت الذكريات على السطح. كذلك خفق قلبه في عنف. لا يزال يجدها جميلة، كما – برأيه – منحها الغياب نضارة واستواءً (وسأضطر إلى التوقف هنا رافضا فكرة وصفها ما دمت لا أملك جرأة بعض الكتاب في وصف أبطالهم وقدرتهم على وسمهم بجمال معين. وكأنهم يريدوننا أن نبصر بعيونهم هم لا

بأعيننا نحن. مع أنه غالبا ما تجدهم يتحيزون لشكل معين من الجمال هو أقرب إلى انتماءاتهم الجغرافية تفضحهم في ذلك عنصرية مقيتة. وربما أيضا لاحظتم أنني لم أمنح لأبطالي أسماء ما دمت لا أنظر إليهم إلاَّ بوصفهم حالات ونماذج بشرية)

ينشغل بمراقبتها. كما يستعيد صوتها الغابر المبحوح. ويسأل نفسه، ماذا لو تبادلنا بضع كلمات؟

يخترق الصفوف متقدما نحوها حتى إذا اقترب مسافة معينة تثاقل. شدَّ انتباهه سيد يقف إلى جانبها كانت توليه كل اهتمامها. مسمّرا مكانه تساءل عن نوع العلاقة التي تربط كليهما؟

كذلك، وبينما هو عرضة لمشاعر وهواجس مقلقة راح يستعيد ما حصل بينهما (أضطر هنا إلى النبش في ماضيهما معا بما يجعل الحبكة مستساغة ومنطقية. وعليه فأنا أفترض التالي:)

كانا من مدينتين مختلفتين جمعت بينهما الدراسة. بعد تخرجه اضطر للعودة إلى مدينته، ليصبح بعدها اللقاء معضلة في حد ذاته. تناقشا في أمر الارتباط. وكان مستحيلا ما لم يُحز عملا قاراً يكفل له مواجهة أعباء الحياة.

اتفقا على أن يؤدي إلزامية الخدمة العسكرية الشرط الرئيس للفوز بمنصب عمل في الوظيف العمومي، بينما تنتظره هي خلال هذه الفترة ومهما كانت الظروف.

افترقا من غير ما ضغينة أو سوء فهم. و لم يكن هاجسه أنه ظلّ- وبعد أكثر من سنة على تأديته لإلزامية الخدمة- بلا منصب شغل. كذلك لم تزعجه الأبواب الموصدة في وجهه هو الذي لا يملك واسطة أو ما يمكن أن يسنده (أورد الجملة الأخيرة هنا، وإن كنت غير مستعد لمناقشتها حتى لا أضيع خيط الحكاية. وأراها مع ذلك كتخوم تبتعد عن المركز لكنها لا تجانبه. كما أنها تشكل إضافة له لما تحمله من رؤى تفضح واقعنا، ولأنها تزيد في حمولة النص) وإن ما هاله وعظُم عنده وظل يشغله أخبارها التي انقطعت عنه مذ انتقل للخدمة. كما باءت لاحقا كل محاولاته لتقصي أخبارها بالفشل. ولولا الصدفة ما كان ليقف أمامها اليوم.

كان لا يزال مشغولا بالنّظر إليها. وكانت لا تزال مهتمة بالسيد الواقف إلى جانبها. كما كان هناك صديق له حضر في صحبته أخذ يرصد الجميع دون أن ينتبه إليه أحد.

قطع عليه هذا الأخير تواتر ذكرياته. وسأله في خبث محاولاً استدراجه للحديث:

- هل كنت تعرفها؟ هل كانت حبيبتك؟

- إنها حبيبتي.

أبدافع الغيرة قال ما قال؟ أم بدافع الشهوة بعدما استثاره الحاضر وهو يحكم ماضيه ويشده بزند غيره؟

قد يكون هذا ما نراه، لكن الواقع يقول شـــيئا آخـــر. فصاحبنا لا يبدو مهتما لعدم التّصديق الذي عكسته ملامـــح صديقه، كما لم يشعر بأنه مضطر لتبرير ما قالـــه ولم يســـع لإقناعه بشيء. وعلى العكس من ذلك بدا متجانسا، متآلفـــا، متصالحا مع وجوده. مقتنعا تماما بما أورده كجواب. ولا مبالياً مدَّ يده إلى طاولة أمامه. أخذ من صحن عليهـــا شـــيئا مـــن المقبلات ما لبث أن دفع به إلى فمه دفعة واحدة، وراح يمضغه على أقل من مهل. وكان بذلك قد منح لنفسه فرصة أن يكون جوابه قاطعا موجزا ومختصرا، كما جعل من صمته عقب جملته مقنعا (عزيزي القارئ إذا بدا لك أنك أبدعت وأنت تطـــرح بديلا عن جو الحفلة، فأنت هنا مضطر أن تواصـــل إبـــداعك وتقنعنا بتعلَّة تجوِّز لنا بها رغبته في الصمت).

جدير بـــي أن أقول إني أفهمه. فهو لم يسْعَ ليكون مقنعا بقدر ما كان يهمه أن يكون صادقا. وهو حين قال ما قال لم يكن يخاطب صديقه بقدر ما كان يخاطب نفسه. صحيح أنـــه فعل ذلك بصوت جهوري، لكن ألا نفعل نحن ذلك عادة؟ ألا نخاطب أنفسنا أحيانا بصوت مرتفع كرد فعـــل هـــو أشـــبه بالاعتراف؟

لقد وجد نفسه أمام معضلة حقيقية ليس لكونه اضطر إلى الكذب (كما يتبادر إلى ذهن البعض ممن هم علـــى اســـتعداد

لإساءة الظن به) وهو يتجاوز فِعل (كانت) الذي يفيد الماضي مُعْلِيّاً من صوت الحاضر مشدداً عليه؛ بل لكونه وقف أخيرا أمام نفسه وأدرك حقيقة لم ينتبه إليها من قبل، أو يكون قد تغافل عنها منذ زمن. وهي أن الفتاة لا تزال حبيبته فعلاً.

أفهم أن منكم من يتساءل كيف أنها حبيبته بينما هو لم يلتق بها منذ ثلاث سنوات، كما كان يجهل كل شيء عنها خلال هذه الفترة؟ ويكفي أيضا أن نبحث في صفة الرجل الذي يرافقها حتى نقف على ما يعارض فكرته ويدحضها!.. وهكذا سنجد أنفسنا مضطرين أن نسمع له أكثر حتى نفهمه. لكن كيف يمكننا ذلك وصاحبنا لا يريد التكلم؟

(ما عليَّ في هذه الحالة إلاَّ أن أستقرِئ داخله. ولا يمكنكم أن تعتقدوا أنّي سأجانب الصواب وأخطئ في توصيف أو استقراء حالته. فلا تنسوا أنّي خالقه، وعليه يكون كل ما له علاقة به له أيضا علاقة مباشرة بمشيئتي).

لم يعد وبفعل الزمن يذكرها كل حين. لابد أنه نسيها وإن ظلّت تزور خياله وأحلامه على فترات كتجربة مرَّ بها ويشعر إزاءها بالخيبة. لكن الأكيد أيضا أنه وهو ينطق بإجابته لم يكن يهمه الوعد الذي قطعته الفتاة له، بل ما كان يعنيه وعده هو لها. كما أنه وطوال هذه الفترة لم يسْعَ لخيانتها و لم

يُقم أيّ علاقة مع فتاة أخرى. أليس هذا وفاء للحـــب؟ ثم ألا يعني هذا العيش فيه؟

إني أسمعه الآن تماما. أسمعه يقول: أنا لم أخنها. وما حصل لم يكن بإرادتي. لم نكن بحاجة إلا إلى لقاء ليتجدد هواء رئتينا وننتشي بالحب من جديد. وأعترف أمام نفسي وأمامها وأمام الجميع بمن فيهم صديقي وذلك الذي هو بصحبتها الآن أنني لا أزال على العهد وأحبها.. فبفضل هذه الخضة أدرك أنه لا يزال يعيش حبه.

ألم تكن قد رأته بعد؟

اكتشفها تتابعه بطرف خفي حتى إذا ما تلاقت أعينـــهما إنبجس القلق وبان على محياها، فكانت كمن غشيتها الظلمـــة جراء الصدمة والمفاجأة. (هل كانت تتوقع أن يقـــدم علـــى تصرف أخرق مثلا؟) وواضح أن ما أخذ يسيطر عليها أكـــبر من القلق. إنه الهلع يتخفى وراء اهتمامها بمرافقهـــا وادعـــاء انشغالها به.

لتتجاوز هلعها سمحت لنفسها بأن تخاطب رجلها بجملـــة مقتضبة غرقت على أثرها في ضحك صاخب وكأن لا شـــيء هناك البتة. حتى إذا نجحت في استقطاب اهتمامه راحا يضجان بالضحك والفرح معاً. وفي مقابل ذلك كانت تتعمد تجاهـــل بطلنا لسبب لا يمكن أن يكون على جهل به. لتصير كل الآلام

التي تكبدها جراء الانفصال من أجل هذه النظـــرة اللامباليـــة ولتطوى قصتهما وتنتهي إلى اللاشيء.

أيهما كان أقل وفاء؟ هو أم هي؟ أم الماضي وهو ينز الآن شحيحا، ولا يثير غير أوجاع صغيرة وباردة؟ ثم هل يكفيه أن يصابر – وإذا ما صابر المجالد فلأجل عزاء يـــراه قريبـــا – ولا عزاء له غير الذكرى انفتحت أدراجها وتبعثرت أوراقها. ومن فرط لفح الواقعة اشتعلت والتهبت أكثر فأحرقته في خضـــمها بكلّه؟

بات على يقين من أنّه حتى ولو سار باتجاهها ستنكره. لم تخاطر قديما، فكيف تخاطر اليوم؟ وعلى أثر ذلك غمره شـــعور مثقل بالأسى أخذ يدوي به عميقا حيث لا رجوع.

هو لم ينس، ويعتقد أنها بدورها لا يمكنها النســـيان.. لا أحد ينسى. ومتى ورد النسيان على لسان أحدهم إلاَّ وكـــان مجرد إنكار يعبِّر عن التجاهل. إن الذكرى بالنسبة لأمثالهم مجرد عقبة تمَّ تجاوزها إلى وضع مختلف، وإذا ما حَاصَرْتَهم في الزاوية عادوا إلى الاعتراف. تفضحهم في ذلك بلبلتـــهم وتململـــهم وضيقهم.

وحده كان، ووحده مقدر له أن يكون حتى يطويه الموت (هل استعار هنا كلمات شاعر ما سوداوي الطبع؟.. لا يمكن طبعا لسبب بسيط وهو أن صديقنا لا ميول شعرية له. وإنمـــا

عبرته لحظات من الأسى والشجن كتلك التي توحدنا جميعا وتصيِّرنا شعراء).

تاليا استحكم فيه شعور بالغضب والكره.. غضب وكره ليسا موجّهين بالضرورة ضد الفتاة، وغالبا ما يكونان صادرين عنه ضد نفسه. غضب وكره يحفران فيه عميقا، ويعريانه ويجعلانه يدرك كم كان حالما، لا واقعيا، أرعنا وشديد الغباء.

الأكيد أن وقوفه أمامها بعد عديد السنوات شكل صدمة له، لكن من يظن أن لتجربة مثل هذه أثار سلبية لا غير يكون مخطئا.

لقد جعلته هذه التجربة يستعيد الصورة المثالية لحبه والذي ظل يحتفظ به كل هذا العمر في خزنة القلب. يستعيده الآن وينفض عنه غبار السنين ويعيد النظر فيه من جديد. وغير بعيد أن يعود فيمزق هذه الصورة ويكسر إطارها في أول فرصة غير آسف على شيء.

عمى الحب ما جعله رهنا للماضي. ولأجل أن يستفيق، عليه أن يسمل عينيه (عينا الحب، وليس عينيه هو. وشتان بين ما فعله أوديب وما سيقدم عليه بطلنا. ولهذا آمل عزيزي القارئ ألا تحاول الربط بينهما. ثم لعلك لا تعرف عن أوديب إلا تلك النظرية التي أتى بها المحلل النفسي فرويد، وغير بعيد أنك لم تقرأ شيئا من المسرح اليوناني. وأحب أن أخبرك أن

لسوفوكل مسرحية أخرى عنوانها أنتيجون. ربما هي الأقـــرب هنا إذا ما أردت أن تبحث عن علاقة).

هل يمكنه ذلك؟

أقول إن للفاصل الزمني دوره. ثم إن مشاعره مع الوقـــت قد قلّ احتدامها وعنفوانها، وبات قادرا على السيطرة عليهـــا. كما لا يمكن أن نتصور أن يكون هذا موقفه لو حصـــل مـــا حصل معه الآن بعد شهر أو شهرين من افتراقهما.

ولأنه استفاق وبدأ يشعر بالتحرّر (أو يعتقد أن هذا مـــا يحصل معه) يفلت ضحكة مستهجنة ساخرة (من يقصد بهـــا تحديدا؟) ويلتفت يولي صاحبته ظهره متجاوزا مشاعره ومـــا خلفته فيه من أثر، وكأنه تبدل إلى آخر غير ذلك الذي ردّ قبل قليل على صديق له بجزم لا يقبل مناقشة. فهل اندمل جرحـــه بهذه السرعة وفي لحظة؟ (يمكننا جميعا أن نتكهن بما كان يحدث في أعماقه، ولهذا سيبدو لنا تصرفه منطقيـــا دون أن نقـــع في التناقض!).

فاراً بنظره منها إلى ما حوله، ومحاولا الانشغال عنها بجو الحفلة (الحفلة التي لم يشعر للحظة أنه ينتمي إليها) تلفت انتباهه إحداهن وهي تبتسم له.

تروقه فيبتسم لها بدوره معبرا عن ود خـــالص. ثم وهـــو يفكر في الخطوة التالية كان لسان حاله يقول: (أو كنت أنا من

يقول، أشبه في ذلك الجدات وهن يختمن حكاياتهن بخلاصة أو حكمة. مع اعتراف بسيط أن هذا لم يكن وارداً أو مطروحـــا وأنا أبدأ هذه القصّة) كل عقيدة هي صادقة ما لم يخذلها الزمن أو تخنها التجربة أو يلوي زمامها المحك. وعلى المرء أن يتحلى بالقدرة على الإيمان بعقائد جديدة بدل تلك التي كان يؤمن بها و لم تقُده قط إلى برّ الأمان.

اِلتباس

اللّوحة الأولى

حدث قنص لشرطي قرب السّوق المغطّاة بحي السويقة الشعبي. سقط الشرطي غارقا في بركة من الدّماء سلبتها شمس الظهيرة لونها فبدت سوداء قاتمة. في لحظة -وبداعي الخوف- انفضّ جميع من كان متواجدا بالمكان كما أغلقت المحال أبوابها. ورغم أن مركزا للشرطة كان يقع غير بعيد عن موقع الحادث إلاّ أن وصول رجال الأمن استغرق بعض الوقت، و لم يتمكن المحققون حينها من العثور على شيء.

في الغد، وقبل طلوع الفجر تقدّمت سيارة بيجو طراز **403** وشاحنة عسكرية وحوالي عشرين شرطيا من النخبة داخل حي الدّرب العتيق. طوّقوا المكان الذي يقصدونه، وتمركزوا في نقاط حسّاسة، كما التفوا حول وادي عين الصّفراء وربضوا أمام منحدره يسدّون كل منفذ قد يلجأ إليه المتّهم المحاصر.

أُعدّ كل شيء في تنسيق محكم. ولم يرصد أحد من السّكان النيام أدنى حركة أو هفوة. ومع تباشير الصباح الأولى، وقبل أن يبدأ المصلّون في الخروج إلى مسجد طبانة لأداء صلاتهم أعطي الضوء الأخضر للهجوم. وما لبث أن اندفع المجندون في حذر باتجاه إحدى الدّور السكنية. ارتقوا الأدراج نحو الدور الثالث آخر أدوار البناية. وسرعان ما حطّموا باب المسكن المقصود، واكتسحوا الغرفة الوحيدة المأهولة، وهم يشهرون أسلحتهم في وجه الجميع.

هكذا وضعوا يدهم على المتّهم. قيَّدوه بعدما تلقى ضربة موجعة على رأسه بمؤخرة كلاشنكوف أفقدته توازنه. وأعلن قائد العملية في نبرة انتصار وهو يفرد صدره:

– ها قد وقعت أيها الإرهابي القذر..

فتّشوا المكان في حذر شديد أملا في العثور على قطعة سلاح محتملة أو منشور سري يكفل لهم تجريم المقبوض عليه. وحين لم يجدوا في حوزته ما يريب أصابهم التشوش. أهانوه وانهالوا عليه بالضرب أمام أبنائه وزوجته. واقتادوه أمامهم مُنحني الجذع يلبس بعضه كجورب نزع على عجل ولا يساوي نكلة.

في السيارة التي حُشر فيها وضعوا عصابة حول عينيه. كان واضحا أنهم لا يريدونه أن يعرف إلى أين يقتادونه. وتحت

مصباح النيون وفي غرفة ضيقة وباردة قاموا باستجوابه. وجهوا إليه أسئلة كثيرة، وأصرّوا على أن يدلي باعترافاته كاملة..

– الآن أيها المخصي ستقول لنا كل شيء. هيا اعترف كيف قتلت الشرطي وأين أخفيت سلاح الجريمة؟.. ما هي الجهة التي تنتمي إليها، وماذا عن رتبتك في التنظيم؟.. ما هي العمليات التي تخطّطون لها؟ عليك أن تزوّدنا بأسماء جميع المتورّطين معك. كن متعاونا حتى لا يصيبك الأذى..

لم يكن يفهم ما يحصل معه أو هكذا كان يبدو وهو يردّد مكرها: "هذا ليس صحيحا. لا علاقة لي بشيء. لا بدّ أنكم وقعتم على الرجل الخطأ". مؤكدا في كل مرة أنه ضحية افتراءات لا أساس لها من الصحّة. ولأنه انتهى إلى إنكار جميع اتهاماتهم لوى الجزع وجوههم وتلبّستهم عصبيّة غير مبرّرة فكأنهم جنس آخر غير آدمي.

اعتبروه داهية ورجلا خطيرا، وأصرّوا على أن كل ما قاله ويدعيه أكاذيب لا يجب أن تنطلي عليهم.

عزلوه، وخلال مدّة حجزه لم يسمحوا لأحد من معارفه بزيارته. كذلك سلّطوا عليه كل ألوان التعذيب. حاولوا أيضا انتزاع اعترافات منه تحت الضغط والإكراه. ومن شدة القسوة والألم بكى كامرأة. وإذا قدّر له أن يبقى على قيد الحياة فلأن أجله لم يحن بعد، لأنّ ما تعرض له كان ليقضي على ثور ضخم.

لاحقا، وبدل أن يخلوا سبيله لعدم توفر الأدلة أخضعوه لمحاكمة صورية وحكموا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدّة. إذ يجب أن يكون هناك متهم يُحمّلونه وزر القضية كلها.

اللّوحة الثانية

حدث قنص لشرطي قرب السّوق المغطّاة بحي السويقة الشعبي. سقط الشرطي غارقا في بركة من الدّماء سلبتها شمس الظهيرة لونها فبدت سوداء قاتمة. في لحظة -وبداعي الخوف- انفضّ جميع من كان متواجدا بالمكان كما أغلقت المحال أبوابها. ورغم أن مركزا للشرطة كان يقع غير بعيد عن موقع الحادث إلاّ أن وصول رجال الأمن استغرق بعض الوقت، و لم يتمكن المحققون حينها من العثور على شيء.

في الغد، وقبل طلوع الفجر تقدّمت سيارة بيجو طراز **504** وشاحنة عسكرية وحوالي عشرين شرطيا من النخبة داخل حي الدّرب العتيق. طوَّقوا المكان الذي يقصدونه، وتمركزوا في نقاط حسّاسة، كما التفوا حول وادي عين الصّفراء وربضوا أمام منحدره يسدّون كل منفذ قد يلجأ إليه المتّهم المحاصر.

أُعدّ كل شيء في تنسيق محكم. و لم يرصد أحد من السّكان النيام أدنى حركة أو هفوة. ومع تباشير الصباح الأولى، وقبل أن يبدأ المصلّون في الخروج إلى مسجد طبانة لأداء

صلاتهم أعطي الضوء الأخضر للهجوم. وما لبث أن اندفع المجندون في حذر باتجاه إحدى الدّور السكنية. ارتقوا الأدراج نحو الدور الثالث آخر أدوار البناية. وسرعان ما حطّموا باب المسكن المقصود، واكتسحوا الغرفة الوحيدة المأهولة، وهم يشهرون أسلحتهم في وجه الجميع.

هكذا وضعوا يدهم على المتّهم. قيَّدوه بعدما تلقى ضربة موجعة على رأسه بمؤخرة كلاشنكوف أفقدته توازنه. وأعلن قائد العملية في نبرة انتصار وهو يفرد صدره:

– ها قد وقعت أيها الإرهابي القذر..

فتّشوا المكان في حذر شديد أملا في العثور على قطعة سلاح محتملة أو منشور سري يكفل لهم تجريم المقبوض عليه. وحين لم يجدوا في حوزته ما يريب أصابهم التشوش. أهانوه وانهالوا عليه بالضرب أمام أبنائه وزوجته. واقتادوه أمامهم مُنحني الجذع يلبس بعضه كجورب نزع على عجل ولا يساوي نكلة.

في السيارة التي حُشر فيها وضعوا عصابة حول عينيه. كان واضحا أنهم لا يريدونه أن يعرف إلى أين يقتادونه. وتحت مصباح النيون وفي غرفة ضيقة وباردة قاموا باستجوابه. وجهوا إليه أسئلة كثيرة، وأصرّوا على أن يدلي باعترافاته كاملة.

– الآن أيها المخصي ستقول لنا كل شيء. هيا اعترف

كيف قتلت الشرطي وأين أخفيت سلاح الجريمة؟.. ما هي الجهة التي تنتمي إليها، وماذا عن رتبتك في التنظيم؟.. ما هي العمليات التي تخطّطون لها؟ عليك أن تزوّدنا بأسماء جميع المتورّطين معك. كن متعاونا حتى لا يصيبك الأذى..

لم يكن يفهم ما يحصل معه أو هكذا كان يبدو وهو يردّد مكرها: "هذا ليس صحيحا. لا علاقة لي بشيء. لا بدّ أنكم وقعتم على الرجل الخطأ". مؤكدا في كل مرة أنه ضحية افتراءات لا أساس لها من الصحّة. ولأنه انتهى إلى إنكار جميع اتهاماتهم لوى الجزع وجوههم وتلبّستهم عصبيّة غير مبرّرة فكأنهم جنس آخر غير آدمي.

اعتبروه داهية ورجلا خطيرا، وأصرّوا على أن كل ما قاله ويدعيه أكاذيب لا يجب أن تنطلي عليهم.

عزلوه، وخلال مدّة حجزه لم يسمحوا لأحد من معارفه بزيارته. كذلك سلّطوا عليه كل ألوان التعذيب. حاولوا أيضا انتزاع اعترافات منه تحت الضغط والإكراه. ومن شدة القسوة والألم بكى كامرأة. وإذا قدّر له أن يبقى على قيد الحياة فلأن أجله لم يحن بعد، لأنّ ما تعرض له كان ليقضي على ثور ضخم.

لاحقا، وبدل أن يخلوا سبيله لعدم توفر الأدلة أخضعوه لمحاكمة صورية وحكموا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدّة. إذ يجب أن يكون هناك متهم يُحمّلونه وزر القضية كلها.

اللّوحة الثالثة

حصل قنص لشرطي قرب السّوق المغطّاة بحي السويقة الشعبي. سقط الشرطي غارقا في بركة من الدّماء سلبتها شمس الظهيرة لونها فبدت سوداء قاتمة. في لحظة -وبداعي الخوف- انفضّ جميع من كان متواجدا بالمكان كما أغلقت المحال أبوابها. ورغم أن مركزا للشرطة كان يقع غير بعيد عن موقع الحادث إلاّ أن وصول رجال الأمن استغرق بعض الوقت، و لم يتمكن المحققون حينها من العثور على شيء.

في الغد، وقبل طلوع الفجر تقدّمت سيارة بيجو طراز **505** وشاحنة عسكرية وحوالي عشرين شرطيا من النخبة داخل حي الدّرب العتيق. طوَّقوا المكان الذي يقصدونه، وتمركزوا في نقاط حسّاسة، كما التفوا حول وادي عين الصّفراء وربضوا أمام منحدره يسدّون كل منفذ قد يلجأ إليه المتّهم المحاصر.

أُعدّ كل شيء في تنسيق محكم. و لم يرصد أحد من السّكان النيام أدنى حركة أو هفوة. ومع تباشير الصباح الأولى، وقبل أن يبدأ المصلّون في الخروج إلى مسجد طبانة لأداء صلاتهم أعطي الضوء الأخضر للهجوم. وما لبث أن اندفع المجندون في حذر باتجاه إحدى الدّور السكنية. ارتقوا الأدراج نحو الدور الثالث آخر أدوار البناية. وسرعان ما حطّموا باب

المسكن المقصود، واكتسحوا الغرفة الوحيدة المأهولة، وهم يشهرون أسلحتهم في وجه الجميع.

هكذا وضعوا يدهم على المتّهم. قيَّدوه بعدما تلقى ضربة موجعة على رأسه بمؤخرة كلاشنكوف أفقدته توازنه. وأعلن قائد العملية في نبرة انتصار وهو يفرد صدره:

– ها قد وقعت أيها الإرهابي القذر..

فتّشوا المكان في حذر شديد أملا في العثور على قطعة سلاح محتملة أو منشور سري يكفل لهم تجريم المقبوض عليه. وحين لم يجدوا في حوزته ما يريب أصابهم التشوش. أهانوه وانهالوا عليه بالضرب أمام أبنائه وزوجته. واقتادوه أمامهم مُنحني الجذع يلبس بعضه كجورب نزع على عجل ولا يساوي نكلة.

في السيارة التي حُشر فيها وضعوا عصابة حول عينيه. كان واضحا أنهم لا يريدونه أن يعرف إلى أين يقتادونه. وتحت مصباح النيون وفي غرفة ضيقة وباردة قاموا باستجوابه. وجهوا إليه أسئلة كثيرة، وأصرّوا على أن يدلي باعترافاته كاملة.

– الآن أيها المخصي ستقول لنا كل شيء. هيا اعترف كيف قتلت الشرطي وأين أخفيت سلاح الجريمة؟.. ما هي الجهة التي تنتمي إليها، وماذا عن رتبتك في التنظيم؟.. ما هي العمليات التي تخطّطون لها؟ عليك أن تزوّدنا بأسماء جميع

المتورّطين معك. كن متعاونا حتى لا يصيبك الأذى..

لم يكن يفهم ما يحصل معه أو هكذا كان يبدو وهو يردّد مكرها: "هذا ليس صحيحا. لا علاقة لي بشيء. لا بدّ أنكم وقعتم على الرجل الخطأ". مؤكدا في كل مرة أنه ضحية افتراءات لا أساس لها من الصحّة. ولأنه انتهى إلى إنكار جميع اتهاماتهم لوى الجزع وجوههم وتلبّستهم عصبيّة غير مبرّرة فكأنهم جنس آخر غير آدمي.

اعتبروه داهية ورجلا خطيرا، وأصرّوا على أن كل ما قاله ويدعيه أكاذيب لا يجب أن تنطلي عليهم.

عزلوه، وخلال مدّة حجزه لم يسمحوا لأحد من معارفه بزيارته. كذلك سلّطوا عليه كل ألوان التعذيب. حاولوا أيضا انتزاع اعترافات منه تحت الضغط والإكراه. ومن شدة القسوة والألم بكى كامرأة. وإذا قدّر له أن يبقى على قيد الحياة فلأن أجله لم يحن بعد، لأنّ ما تعرض له كان ليقضي على ثور ضخم.

لاحقا، وبدل أن يخلوا سبيله لعدم توفر الأدلة أخضعوه لمحاكمة صورية وحكموا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدّة. إذ يجب أن يكون هناك متهم يُحمّلونه وزر القضية كلها.

لبن طازج

في ذلك اليوم دق جرس الفترة الصباحية. وغادر التلاميذ مقاعدهم..

وُجِه الصبـــي مع أقرانه في طابور نحو باب آخر يقـــع في غير ذلك الجانب الذي اعتاده وألف الخروج منه العام الفائت. وتملكه بسبب ذلك الجزع، وشعر بالارتبـــاك. وفي الخـــارج ووسط فوضى عارمة فقدَ حدسه بالمكان، ولم يعـــد يعـــرف كيف يعود إلى بيتهم. وغير مخير استسلم للحشود تدفع به إلى الأمام.

كان يعرف أنه يتواجد غير بعيد عن الشارع الذي يقطن به بحكم أن المدرسة قريبة. ورأى أن يمشي قليلا علّه يجد مـــا يهتدي به. وسار على غير هدى مسافة معينة ثم أدرك أنه عليه أن يتوقف حتى لا يوغل أكثر ويتورط في الاتجاه الخاطئ.

مذهولا أخذ يتأمل ما حوله..

ماذا يحصل معي؟

المعالم من حوله لا يكاد يميزها أو يعرفها. كان كمن ولج ثقبا أسود جعله على الناصية الأخرى من العالم. وهناك راحت تحيط به ومن كل جانب عمارات ضخمة وشاهقة تشبه العمالقة أخذت تسد عليه الأرض والسماء. والفضاء – إذا ما نقل بصره حوله – أضيق من غرفة التخزين بالبيت، وهو فارغ كأن قوة عظيمة سحبت الناس جميعهم وتركته وحده. وللحظة لم يعد يصله شيء. لا أصداء ولا أصوات ولا حركة. فقط صفير الريح في الفراغ. وأما الأمان فتلاشى تدريجيا. وأما الأمل، فلا بد أن يأتي في الحين أو لا يأتي لأن ما بدأ يفعله الخوف به لا يحتمل.

كعصفور أطبقت عليه كماشة لم يعد يسعه إلا التخبط. وجثم على قلبه شعور مثقل بالكرب واليأس. كان سيصدّق أنه يحلم، وأن ما يعانيه كابوس لولا أنه في وضح النهار. كما أنه يتذكر تماما ما حصل معه منذ الوقت الذي استيقظ فيها وحتى لحظة خروجه من المدرسة. وإن كان يتمنى في أن يكون ما يحدث معه يحصل له في نومه، فلأنه متى تعاظمت مشاكله رغب في حل يأتيه في جرعة سحر.

يدرك أنه يقظٌ تماما وألاّ مهرب له ولا أمل في هِبات تعتقه. ويَغْلُبُ على الصبي ذعرٌ شديد حالما يدرك أنه ضائع. ومع ذلك يحاول أن يضبط انفعالاته ويسيطر على نفسه. يكبح

دموعه أيضا، ثم يقرّر أنه حان الوقت الذي يجب أن يطلب فيه المساعدة. لكن ماذا عليه أن يفعل؟

يجول بنظره في المكان من حوله..

أمام السور هناك، وعلى بعد ثلاثين مترا منه يظهر كهل في مثل سن والده يرتدي جينز وسترة رمادية، يشير إليه ملوحا. لكن الظاهر أن الرجل لا يأبه له، ويبدو مهتما أكثر بموعد يترقبه من خلال ساعة يده التي يصرّ على النظر فيها وبالكاد يرفع عينه عنها. كذلك على الرصيف وفي الجهة المقابلة يلمح امرأة ضعيفة البنية مقوسة الظهر تلتحف الحايك، لا يعنيها أمره حين ينادي عليها. تبدو مشغولة أكثر بقفتها وهي تجاهد في حملها.

هل عليه أن ينادي ويصرخ؟

يفكر لعلّ أمه أو أحدا من الجيران يتعرّف على صوته فيهب لنجدته، وهكذا يأخذ في المناداة: "يا مَّا.. يا مَّا..". لكن لا أمّه ولا غيرها من سكان العمارات يطلّ أو يستفسر، وحتما لم يعنهم صراخ طفل متروك لوحده، ولم يجدوا معنى في صراخه.

فهل تخلّى الجميع عنه؟

تطغى عليه الوساوس وتهاجمه الهواجس كما يستولي عليه جزع قاتل ما دام أنه متروك في هذا العالم لوحده، ولا أحد

يشعر بضياعه أو بالمصير الذي ينتظره.

من هنا تقع عينه عليهم، وهم إذا ما راقبوه فمن أماكن تعنيهم لا يجد فيها نفسه أيضا. لكلٍّ زاويته التي يبصر بها العالم وهذا ما يذهله ويشله، إذ بمنطق الطفل نفسه يجب أن يكون كل واحد جزءاً من المجموع وله عين الجماعة. ما يراه يجب أن يكون هو نفس ما يرونه، وما يشعر به لا بد أن يشعروا به بدورهم. لكن ذلك الرجل وتلك المرأة والآخرين بدوا له مختلفين أو بالأحرى مستقلين، هم ليسوا هو، كما أن وجوده لا يعنيهم في شيء، وإلا كيف لا يشعر أحد سواه بمأساته؟

تُرعب الصبي الفكرة التي اكتشفها لتوه. وفي غمرة فزعه يأخذ في الدوران حول نفسه. يخطو هنا وهناك غير قادر على البت في شيء. ولحسن الحظ يكتشف أنه يقبع خلف العمارة التي بها مسكنهم؛ فكيف لم ينتبه قبل ذلك؟!

كأنه وقع في الظلمة لبعض الوقت ثم عبر منها إلى النور. ضاع لمدة قصيرة من الزمن، وكان فيها كمن ولج عالما موازيا ثم ما لبث أن عاد. صحيح أن هذه التجربة لم تدم لأكثر من دقائق معدودة. وصحيح أنه ليس بذلك السوء أن تكتشف أنك ضائع ثم تهتدي إلى طريق العودة دون أن يمرّ وقت طويل ودون أن تشهد معاناة كبيرة. لكن كذلك كان هناك شعور

الصبـــي المضاعف بمحنته، وهذا ما منح تلك اللحظات قوتها وسطوتها عليه. ثم إن الأثر في واقع الأمر لا يرجـــع للتجربـــة نفسها بل للاكتشاف الذي اكتشفه. إنه يختلف عـــن الآخـــر الذي لا يعني وجوده مساندته له بالضرورة، وإنه لا بد متروك يعاني قسوة الوحدة لبقية عمره دون دعم!

هل كان الأمر مضحكا؟

في البيت يكتم الصبـــي القصّة ولا يحكيها. ربما يفعـــل ذلك بدافع الخجل. لا يستطيع أن يقول إنه ضـــاع وصـــرخ يطلب المساعدة، بينما هو خلف العمارة التي يقطنها وفي مكان قريب لطالما تردد عليه مع أقرانه للعب فيسيؤون فهمه. كذلك لم ينم في تلك الليلة ولا في الليالي اللاحقة.

بسبب هذه التجربة أيضا يكون ذلك الصبـــي قـــد ودَّع الطفل فيه. لقد ظلّ يستعيد تلك الحادثة والرعب يغشاه. رعب لا يعرف كيف يتجاوزه أو يداويه.. رعب غامض لا قبل لـــه به. ولقد امتلأ من ليلتها بهواجس مقلقة اتخذت الخوف قناعـــا وارتدت المجهول عباءة، وصارت تكنى بالخوف من المجهول.. ثم إن هذا الخوف ظل يرافقه. يصحبه تارة فيكون على جانبه، وتارة يسير خلفه، كما يتقدمه مرات عديدة ولا يتخلَّـــف إلاَّ فيما ندر.. وهو ينغصّ عليه ولا يريد أن ينصرف كحاله حين يقوم بعمل مخالف يكسبه وعيد الوالدة، وانتظار مصير لـــه لا

محالة سينجلي مع عودة الأب من عمله.

في تلك المرة كان الخوف مفرطا ضاجا صاخبا لا يخلص ولا يمكنه أن يتخلص منه، لأنه غير محدد بزمن وغير مرهـــون بحالة. وهو كالكلف على جلده عليه أن يقبل به وأن يتعـــايش معه في كل الأحوال.

المرأة التي سقطت من غيمة

ابتكار الألم:

إذن، لم تقض خلال محاولتها الانتحار. بقيت حيَّة تجـــر خلفها كل أيام النحس التي عاشتها. تســـتعيدها ذاكرتهـــا ولا تريد أن تفلتها. وكانت كلما وقفت أمام نفسها عاودتها تلك اللحظات مشبعة بمرارة أكبر وأفظع.

ظلت الذكريات تجلدها. ورغم الآلام التي كانت تسببها لها فإنها لم تكن لتؤدي إلى حتفها، إذ كان ما سيقتلها حقا هو العيش في الخيانة. وفي عرفها أن كل يوم تعيشه بعيدة عمـــن تفتقده هو خيانة له. ثم لم تبقى وحيدة في عالم فقدت فيه كل عزاء أو أمل؟

كان قدرها أن تحيا متخمة بحب من لم يعد موجودا بيننا بعدما انصرف إلى حيث لا تدري، وغلَّق الأبواب خلفه ظانـــا أنها لن تلحق به. إلاّ أنها ومع فائض الحب الذي تغـــرق فيـــه قررت العبور إليه. أي نعم، لطالما نازعها التفكير في خالقهـــا،

لكن ما الإنسان إذا لم يكن مجموع زلاته؟ وما العمر إذا لم يكن بحماقاته؟ وفي عجلة من أمرها قطعت شرايين ساعدها الأيسر بمدية حادة؛ لكن الحظ الذي يبالغ في لؤمه معها أبى أن يناولها مرة أخرى ما تريد. وهي رهينة وضعها الجديد لم يسعها غير الاستسلام. ليس كمخرج تراه، بل كوقوع في حالة تعني فيما تعنيه فقدان الرغبة في العيش.

كيف ترسم قوسا، كيف ترعاه:

لم تحمل الأيام أي جديد. كما لم تتحسن حالتها منذ استفاقتها من غيبوبتها. وأكثر من ذلك بدا وضعها غير مستقر، بل يسير إلى الأسوأ وهي عازفة عن الطعام والشراب، اللهم إلاَّ الدواء تتجرعه مرغمة، والحقن والأمصال وهي تغرس في جسدها بلا رغبة منها.

تُجلسها أمها كل صباح في فراشها فلا تراها تتزحزح من مكانها. وتظلّ واجمة فيما نظرها شاخص أمامها خالٍ من كل تعبير. وفي اللّحظة التي يعتقد فيها الجميع أنها فقدت الإحساس بكل شيء، تغذو تستعيد ما مرَّ بها. يعبرها كفيلم قديم بالأبيض والأسود لا يثير لديها أي مشاعر.

كانت من النوع الذي يصدّق أحلامه ويحاول أن يبلغها على أرض الواقع راضيا بالضريبة، ومتقبلا الأثمان التي وجب

دفعها. فالعزاء أولا وأخيرا في أن تشعر بأنك تملك ما راهنت عليه وناضلت لكسبه. لكن ما لم تتوقعه قد حصل.

أجزم أخوها أنه لن يتركها تهنأ بمن اختارته زوجا. وظلّ يصرخ في وجهها مثل ضفدع منتفخ الأوداج أنه مستعد لارتكاب جريمة حتى يمنعها عما اعتزمته. أضرت به لما رفضت صديقا له اختاره لها، وأخرجه ذلك عن طوره. كرهَته يومها كما عافت صديقه حتى دون أن تراه. لا بد أنهما من طينة واحدة. وأصرّت على من أحبت، ولم تكن تدري أن أخاها سينفذ وعيده، وأن حبيبها سيقتل وتسقط هي في الهاوية من بعده.

أردوه قتيلا بدم بارد. هكذا طالعتها الأخبار. ولم يبدُ غريبا ما حصل بعدما تسيّد العنف وطغى، وبعدما تحوَّلت البلد إلى مقبرة لأبنائها. وقد خلّف ذلك لديها حزنا سيظل وحده يتكرر ليذكرها بنفسه إلى ما لا نهاية.

عطفا على القطيع:

لا يكاد باب غرفتها يغلق لكثرة الوافدات والزائرات. يحضرن لعيادتها والاطمئنان على حالها. ينحشرن وسط غرفة ضيقة معتمة مكتظة بأثاث قديم تكدست فوقه أفرشة من كل حجم ولون. يدخلن أوَّل ما يدخلن جزعات متعاطفات ثم لا

يمضي وقت كثير حتى تجدهن وقد أخذن في الثرثرة ككورس يلعلع في نشاز. يُطلقن العنان لجهورة أصواتهن معتدين على سلامة المريضة. يخضن في أحاديث جانبية وتسقُّط أخبار بعضهن البعض.

يتجاوزن مأساتها ويقفزن على جرحها، حتى إذا عدن تعجبن لإقدامها على الانتحار. يغفلن عن دوافعها ويتغافلن عما فعله زبانية الظلام في حقها وحق زوجها. أكثر من ذلك يتمادين. يقاضينها فقط لأنها أحبّت ودافعت عن حبها جهارا. غير مقبول هذا في عرفهن. يتشفّين هذه المرة تملأهن ضغينة لا يعلم أحد من أين رضعنها. أصابتهن بدورهن اللوثة بعدما عمّ الوباء واستفحل. ولو كان الأمر بيدهن لشحذن السكاكين بدورهن.

هل كانت تسمعهن؟ لا يبالين لذلك. فمتى انطلقن لا يمكن لشيء أن يُلجمهن. ها هو الحقد يركّب لسانا وينطق بجهله. وها هنّ يتساءلن من أين لها بكلّ هذا الجموح والعصيان؟ ثم لا يلبثن أن يرين فيه تنمّرا وتهوّرا لا يليق بأنثى، بل هو انحراف خطير ليس فيه من الشرف شيء.

تهمس إحداهنّ وهي تهزّ عجيزتها الضّخمة، تحاول أن تثبت على وضع مناسب. لقد ارتكبت خطيئة. توافقها باقي النّسوة؛ بينما تستعجب أخرى. ما يُحيّرني، من أين حازت كل تلك القدرة؟ تلتفت إليها ثالثة بعدما ساءها ما سمعت. لا

يغرنك الأمر. إنّه الجبن يا عزيزتي وعدم الثقة بالله. سريعا تعود صاحبتها فتوافقها وهي تُمعن في هزّ رأسها. تزعق عجوز فقدت كل أسنانها. ما فعله أخوها يشرفه. دافع عن عرضه بعدما لم يستطع ترويضها. وتَعجب شابّة لأمرهن. ولعلها تحلم بالحب أيضا. لكننا لم نسمع عنها ما يعيب، كما أنها لم تفعل ما يشين. فقط أحبّت وتزوّجت بمن أحبت! تستحي أم الشابّة لجسارة ابنتها وجرأتها وسط الحاضرات. تهتف تسترضي الجوقة. ماذا تعرفين أنت؟ إنها مجرّد فتاة عابثة. ولقد رأوها تستحم مع الأولاد في (القلتا). يا أمي كان ذلك لما كان في عمرها ست سنوات. أنا نفسي سمعت هذه القصّة منك أكثر من مرة. وتعود الأم فتقرص الشابة في فخذها تدعوها بذلك إلى الصّمت. وتردف بصوت تريده أن يسود. لكن من غيرها يخالط الذكور؟ يكفي أنها تعمل ممرضة في مستشفى غيفارا.. حينها تُلجم الشابة، وتكتفي بهز كتفيها استهانة، وبينها وبين نفسها تردد. أي قطيع هذا؟!

ما أوحت به الغيمة:

ما زال لنا في الحياة بقية، وما زال لنا في الغد حظ. العبارة الأثيرة لدى أمها. تردّدها بمناسبة ومن غير مناسبة. تنطقها بإيمان عميق لا يتسلّل إليه شك. كما تجدها تجتهد في العمل بها

فتراها تندفع في كل اتجاه عنادا منها في بعث الحياة في ابنتـــها، حتى أنّها أحضرت مرة أحد الشيوخ إلى البيت. قالت عنه إنه أحد المرابطين. كلّفها كثيرا لكن كلّ شيء يهـــون في ســـبيل غاليتها.

أجرى الشيخ معموله. وفي صباح الغد كانت الفتاة قـــد وطأت الأرض بقدميها المتحجّرتين. وجدت نفســـها تنـــدفع خارج الفراش بعدما داهمها دوّار خفيف وغثيان كادت بسببه أن تطرح كل أمعائها.

استجمعت قواها واستندت على الجدار تَصلبُ جِدعها. ثم حاولت المشي وراحت تجر رجليها وبدت أشبه بصبـــــي صغير يحاول أن يخطو خطواته الأولى.

جاهدت لتخرج من حدود غرفتها أو الصندوق الـــذي حشرت فيه. وكادت تقع وهي تعبر المجاز. وعندما خرجت إلى الحوش كان الماضي قد انزلق خلف ظهرها. وجدت نفســـها تغمض عينيها وهي تواجه دفق النور. ولم تستطع أن تقـــاوم إغراء الإبصار، فأصرّت جاهدة على فتحهما ومقاومة العمى. حينها كانت كمن يُطل على هذا العالم عبر حلم خضر أو من فردوس سماوي.

كانت الشمس فاترة، لكن أشعتها نافذة حتى أنها شعرت بها تخترق كل مسامات جلدها. تجاوزت شـــعورها بالـــدوّار

والغثيان. تنفست وعبَّت ملء رئتيها هواء منعشا حيا. وغـــير الشمس والنور والهواء كانت هناك أمها تربض وسط الحـــوش تجلس القرفصاء أمام صينية القهوة. ما إن رأت ابنتـــها حـــتى تجاوزت مرضها وألام المفاصل الذي تعاني منه، وقامت دهشة تطفر الدموع من عينيها.

غير قادرة على تمالك نفسها خطت باتجاه ابنتها تأخـــذها في أحضانها..

– الحمد لله أنك عدت إلى الحياة أخيرا.

غالبت الابنة حزنها، وحاولت الابتسام ما قدرت.

– يا أمي لسوف ينتهي كل هذا، ويبدأ زمن هؤلاء!

قالت ذلك، بينما هي تضع يدها على بطنـــها. كانـــت وكأنها تشير إلى شيء ما. وربما إلى مضغة راحت تتشكّل هناك في أعماقها.

موعد خارج الإطار

"يقبل على جالاتيا الحية معجبا في بادئ الأمر، ثم لا يلبث أن يراها أقل جمالا وكمالا من جلاتيا العاجية، فيطالبنا بردها كما كانت.."

بجماليون – توفيق الحكيم

كنتُ غاضبة. سيئة المزاج وغاضبة. وكانت أعصابي مشدودة فيما رائحة الصديد التي يعبق بها الجو تسبب لي الهياج وتزيد من نفوري. ما من حل!.. توقعته أن يصل قبلي، لكن يبدو أنه تأخر، أو في الواقع أنا من أبكر. ما يزال على موعدنا عشر دقائق كاملة. لا أحد يقدر على ضبط مواعيد المواصلات. تخشى أن تصل متأخرا فتصل متقدما. يحصل هذا أيضا وإن نادرا، ولا أدري هل عليّ أن أشعر بالامتنان لذلك؟

لو اتفقنا أن نلتقي في مقهى لكان أفضل. تحرجت أن يصل قبلي وأضطر إلى الدخول وحدي والبحث عنه كمغفلة. وها أنا الآن أقف كدبوس مغروز في أرض الرصيف أنتظره.

أشعر بأني في ورطة، وأسأل كيف أحافظ على وقاري ورزانتي بينما أنا على صفيح ساخن. لا يمكن أن يكون الجحيم أكثر قسوة. ولا خلاص لي من هذا الوضع إلاّ بأن أتحول إلى عمود إنارة أو كرسي خشبي أو كيس نفايات لا يهتم لوجوده أحد. وحده هذا ما سيدفع عني القرف الذي يصيبني به المارة وأصحاب السيارات. تجدهم وهم يبادرون للفت انتباهي مثل (الزومبي). تفضحهم عيونهم الجاحظة وألسنتهم المدلوقة والسيلان المزمن الذي يعانون منه يستفحل متى رأوا إناثا والإناث في كلّ مكان. وحتى ذلك الشرطي وهو يقف على الرصيف المقابل والذي هو من المفروض هنا لحمايتي ينصب فخاخه حولي ويعتقد لبلاهته أنه مثلي مثل أي ذبابة حقيرة يمكنني أن أقع على عسله بسهولة.

أفكر أن أغيظهم. ماذا لو استجبت لتحرشات أحدهم؟ أضحك ثم لا ألبث أن أبتر ضحكتي. إذ علي أن أظل جهماء عابسة. هنا لا مجال للرهافة. سيظنون الظنون جميعها إذا ما أبديت رقتي، وحينها لن أخلص من غبائهم.

يخرجني هذا عن طوري ويدفعني لأقترف أي مصيبة. وأتصوّر أني لا أحتاج إلى إعمال المخيلة بقدر ما أحتاج إلى فرقعة تصرفهم عنّي. في عالمي الآخر كنت أطفئُهم بكبسة زر. لا أسهل من أن أضعهم في حفرة وأهيل عليهم التراب من غير

أسف، لكني هنا بحاجة لرشّاش ملقم بست وستين طلقة. هكذا أطلق بينما ألتف حول محوري دورة كاملة. ست وستون طلقة تعني ستا وستين إصابة لا محالة. ومع ذلك لا أظنني سـأتخلص منهم جميعهم هؤلاء الحمقى.

أجفل وقد باغتني صوت خفيض مهذب يلقـي بسـلامه. ألتفت نحو مصدره وأنا مرعوبة، ولا أصدق أني أقف في حضرته.

لم أتوقع أن تكون أنتَ. أبدي تعجبـي مـن حركتـه، فيقول: أردتُ أن أفاجئك.

وددت أن أردّ عليه، وأقول: "حاول أن تحتفظ بمفاجآتك لنفسك"، لكني أمسكت. ليس من اللباقة في شيء أن أكـون صريحة دائما. في حذر أنبهه. لكنك أفزعتني حقا!

في الثلاثين من عمره. معتنٍ بهندامه كما العادة. وسـامق إلى حد مهول، فلا أعرف متى وقفت أمامه هل عليَّ أن أتحمل طوله أم أداري قصري؟ يحاول تقبيلي، لكني أمد يدي أصافحه. أقطع عليه الطريق يسوقني إلى ذلك حرجي، كما أني لا أريـد أن أبدو كفتاة سهلة لتتلاقى الأكف سريعا وفي برودة؛ علـى الأقل من ناحيتي. وبينما أُصرّ على قناع الجدِّيـة لا أريـد أن أنزعه يحاول هو أن يبدو مرحا وودودا.

يعود فيقول: تبدين جميلة. يستفزني هذه المرة. والحقيقة لا أجد في كلامه أي مدح، بل يصلني ما قال كنوع من التملـق

الزائف. فأنا لا أزال مستثارة وعالقة في المحيط الذي اضطررت أن أنتظره فيه.

كانت يده اليسرى لا تزال خلف ظهره، ثم فجأة وكما يفعل الساحر أجده يسحبها مع باقة ورد كبيرة وملوَّنة. يقدمها لي دون أن ينسى تنهيدة العاشق، فيبدو بحركته تلك وباقة الورد شبيها بـ "كريس أودونيل" في فيلم الأعزب، لكني للصراحة لم أكن جاهزة لأجن به خصوصا مع الأسباب التي أحملها.

حريّ بي أيضا أن أفرح وأبتهج وأنا أستقبل الباقة، وأن أنشغل بوروده وأتظاهر بشم عطرها، لكن هذا لا يحصل بعدما تلبّسني الرعب.

كنت – وهذا ما لم يفهمه – قد بدأت أشعر بالارتباك والتشتت. بل أكثر من ذلك ظهر أني مفككة كدمية عبث بها أحدهم وفصل أجزاءها. ورحت أتساءل ألا يزال الشرطي في مكانه؟ هل يبحث لنا عن تهمة؟ أتصور أنه ليس هناك ما يمنعه. ويمكنه إذا ما شاء أن يضع القيد في أيدينا ويسحبنا أمامه إلى المركز. ولأنه لم يفعل أقدر أني أعيش معجزة.

تسلمتُها مكرهة وعلى مضض. وبينما تخلص هو من هوس الباقة، بقيت أنا رهينة لها.. كرهتها وروده. أقدر رومانسيته، كما يعنيني اهتمامه المفرط بي، لكنني حقا جبانة

أمام أولئك الذين يعلنون عن رفضهم لكل تناغم أو انسجام بداع الحشمة والوقار. تشي بذلك تصرفاتهم. كما لا يمكنني أن أتعامل مع وروده دون أن أشعر بنظراتهم المركزة نحوي كما لو كنت أقدم عرضا هزليا ساخرا وجريئا. وأوّل ما فكرت فيه وأنا أستقبل باقته أن أحشرها في حقيبة يدي، لكن ظهر أنها لا تسعها.

باقة ورد تصلني كأيقونة على جهاز "أيباد" تكفيني وتشعرني أنني أنثى وتجعلني أضج بالفرح. في عالم الافتراض كل شيء سهل وممتع. حتى أني متى شعرت بالتعب أو الضجر كنت اعتذر وانكفئ على جنبي الآخر وأنام. وحده الإطار الأزرق قلعتي. ووحده فيه أعامل كملكة. وأمّا في هذا العالم المتواطئ فلا غير المعاناة. على النساء فيه أن يحظين بشجاعة نادرة لقضاء مشاويرهن وإلا ضعن كقرابين مهملة.

ظلّت ابتسامتي مع ذلك مرسومة على وجهي دون أن يعني ذلك أني مبتسمة فعلا. وقدّر هو هواجسي فراح يسألني: ماذا بك؟ وفي صوت أشبه بالآلة الصدئة نطقت: لا شيء.. كرّرتها مرتين. أعقب ذلك صمت دام لثانية واحدة أعلنت عقبه عن رغبتي في الانصراف. طبعا اختلقتُ سببا حاولت أن أصوغه حتى يبدو مقنعا. لكن وأنا أطرحه بدا وأنه يتضمن خللا ما. ومع ذلك أصررت عليه متملصة. وحين وليته ظهري وانطلقت

لم أكن في حاجة لأن أتظاهر بالسعادة أو أن أكبت فرحي مغتاظة. فلقد أمكنني حقا أن أبتسم بصفاء وراحة لأول مرة. وكنتُ أردد ما بيني وبين نفسي: "إنه يبدو ذكيا بما يكفي، ولا يمكن أن تنطلي عليه حيلة مماثلة. لكنه أيضا لطيف وحتما سيعذرني..".

صَاحِبُ ظِلِّه

-1-

استيقظ من نومه مثقلا كمن كان يؤدي سخرة. انتبه إلى من بجانبه فتذكر ليلة البارحة. لما لمحها أشار إليها. وعندما اقتربت منه عزف عنها وتأفّف، ثم قَبِل بها مرغما جزعا بالقدر نفسه الذي لم يكن يسمح له بقضاء ليله وحيداً.

تحرك إلى الحمام، وهناك حاول أن يغتسل ليتخفف من تعب يحسه لكنه وجد الحنفية مضربة كالعادة. اكتفى بتأمل حالته في المرآة. وعلى صفحتها ألفى صورة شاحبة لا لون لها.

عاد إلى غرفة نومه، وفتح النور. حينها استيقظت الفتاة. تأملها مليّا وتأسف. كانت البارحة تشبه ظلمته وها هي الآن تجسد مأساته كاملة.

لفَّت بصرها تتعرف على المكان من حولها، وكانت وكأنها تكتشفه لأول مرة. سألته عن الكتب المنتشرة بعبث وفوضى في غرفة نومه. وأخبرها أنها متعلقة بعمله. قالت إنها

تحتاج إلى من يهتم بها، فهي هنا عرضة للغبار والتلف أكثر من أي شيء آخر. وتعجب لتدخلها فيما لا يعنيها، وامتعض منها وبدأ يشعر بالتوتر.

عليهَ أن يتخلص من الفتاة سريعا..

أخبرها أنه تأخر عن موعد عمله، وهو بصدد الخـــروج حالاَ. فتحركت لأول مرة، وهي تسأله هل يمكنها أن تعـــود هذا المساء أيضا. تحرّج لكنه وجد مخرجاً مناسبا. قـــال إنـــه مضطر للسفر في رحلة عمل، ولن يعود قبل نهاية الأسبوع.

كان جو الغرفة مشبعا بالرطوبة والعفن. وبادرت الفتـــاة أوَّل ما قامت إلى فتح النافذة، لكنها انتبهت إليـــه يزجرهـــا ويصدها ويقف حائلا دون وصولها إليها.

استغربت واستهجنت تصرفه فيما هي تعـــود إلى مكانهـــا مذعنة. قالت إنها تريد هواءً نقيا بدل هواء الغرفة الخانق! وراحت ترتدي ثيابها على مهل. حينها فقط عاد إليه هدوءه. ومن مكانه ذاك لم يفته أن يطلّ عبر خصاص النافذة إلى الخارج.

وجدهُ هناك ينتظره وقد أبكر كعادته. كان ظِلّه يقـــف مستندا إلى عمود الإنارة ومشغولا بتصفح جريدة يحملها معه. وحاول أن يبتسم بعدما عبرته فكرة خبيثة. ماذا لو يعقد معـــه صلحا؟.. يدعوه إلى شقته ويمنحه الفرصة في أن يقلِّب الفتـــاة التي معه!

-2-

انطلقا معاً، وعلى السلم تجاوزها ينكرها. وخارج العمارة غمره ضوء الصباح فمدَّ يده أمامه ينشد مزيدا من العتمة، وإن راحت عيناه تجوسان محيطه وتستطلعان مكان صاحبه. ووجده يطوي جريدته ويستعد للحاق به.

لم تكن مقهى "السعادة" بعيدة عن مقر سكناه. عرّج عليها كعادته كل صباح. جلس في مكان قصي وطلب قهوته وهو يلمح بنصف عين ظلّه يركن إلى طاولة بجواره، ثم وهو يقدم طلباته كأي زبون عادي.

تصوّر أنه لا يزال أمامه متسع من الوقت. فتح محفظته واستخرج منها ورقة وقلما. فكرّ قليلا، ثم سطر عنوانا كبيرا جعله يتوسط الورقة. "الرجل العصري". وما سوَّده لاحقا كان مقالا في الموضة، راح يصف فيه أحسن الأزياء التي ينبغي على المرء أن يرتديها في هذا الفصل. وخلُصَ أنّ أحسنها ما كان بلون رمادي، فهو برأيه لون "لا متحزب".

انتهى من قهوته ومن كتابة مقاله، وقرّر أنه حان الوقت ليتوجه إلى مقر جريدة "المَشرق" أين يعمل. وحين كان ينقد النادل الحساب خطرت له فكرة أن يدفع ثمن القهوة التي شربها صاحبه أيضا. وهذا ما فعله.

استقل تاكسي. وفي داخل السيارة ضحك حتى أربك

السائق. كان يستعيد البلبلة التي أوقع فيها ظلّه الـــذي تســـمر مكانه متعجبا مستغربا تصرفه. لأوّل مرة يتسنى له أن يفلـــت منه، لكنه كان على يقين أنه سيجده وقد سبقه إلى مقر الجريدة ما دام على علم بكل خططه وطرق سيره.

-3-

أمام مدخل الجريدة سأله أحد المارين عن الوقت فاكتشف أنه فقدَ ساعة يده. كانت التذكار الوحيد الذي يربطه بوالده. حزن لضياعها، ثم قرّر ألا يهتم. إذ لا يجب أن يتوقف الـــزمن عندها. وفي الداخل حيَّاه بعضهم لكنه لم يهتم بالردِّ على أحد. وفي مكتبه تهالك على كرسيه ضجرا، وتساءل عـــن الوقـــت وكيف له أن ينقضي.

دخل عليه مكتبه صحفي متمرن أتاه بمقال لمس فيه أوَّل ما وضع يده عليه ميله للون الأبيض. أنكره عليه وطالبه بإعـــادة صياغته بما يتوافق وسياسة الجريدة. ثم إنه لا يريد أخبارا تحرجه أمام صاحبه.

انصرف الصحفي ثم عاد بعد ساعة. تأمل ما أنجزه، وكان واضحا أن ما كتبه هذه المرّة يميل إلى اللون الأسود. سأله لماذا يصر على وجع الرأس. ومزق المقال أمامه وهو يخبره أنه أبـــدا لن يكون صحفيا ناجحا ما دام يفكر ويكتب بهـــذا الشـــكل

المريع. وكان صوته منفعلا وحادا حتى أنه شعر بالضغط يعود إليه.

رنَّ هاتفه الخلوي. وانتشله من كدره رفيقه حكيم وهو يدعوه للسهر عنده الليلة في شقته. رحب بدعوته واعتبرها فرصة مناسبة سيتسنى له فيها أن يفرج عن همِّه وما ينغص عليه.

-4-

كان كل شيء معدا لاستقبال الزوار. وعقد مجلس الشراب والحشيش. هاجت الرؤوس وماجت حتى أدركها التعب والفتور. وشَخصَ ببصره نحو السقف ليكشف له الدخان المتصاعد والمتراكم عن شبح له ملامح ظلّه فعجب كيف أمكنه أن يلحق به وهو في عزِّ غيبوبته. وحتى يهرب منه طالبهم بأن يسطلوه ثانية.

قدموا إليه سيجارة جديدة عبَّ منها نفسا طويلا، وكاد يختنق. لاحقا تصوَّر نفسه مارداً جباراً يأسر العالم ويحتجزه داخل علبة كبريت. راقته الفكرة فشطح بخياله. استلّ عودا أشعله ثم عاد فأودعه العلبة، وراح يستمتع بالعالم وهو يحترق.

استسلموا لعادة الكلام فتحدثوا بلا انفعال في كل شيء ولا شيء. ووجد نفسه يدلي بدلوه في الحديث. قال يخاطب

حكيم: ".. ولا سبيل للعظمة لك اليوم إلا إذا توِّجت قـــاتلا. تارة باسم الدين وتارة أخرى باسم السياسة؛ وأما إذا رُمت أن تكون من الفرقة الناجية فليس عليك إلاَّ أن تُغـــير جنســـك وتقلبَ شاذا..". وضج المجلس بالضحك، ثم حل صمت مطبق كالعدم، أعقبه طنين ذُبابة حاولت أن تحتل وجهه كرهـــاً، ثم صوت سيارة مزمجرة أخذت تعبر الشارع في جنون.

-5-

أزف موعد عودته إلى مسكنه، فأعلن عن رغبته في المغادرة. أبدت الشلَّة استياءها وترجته أن يبقى ويبيت بينهم، لكنه تحجّج واختلق ألف عذر لينصرف. وفي الخارج تلقفته ظلمة موحشـــة جعلته يندم على تسرعه؛ وودَّ لو عاد على أعقابه.

سار شاعرا بضعف ووهن، وحـــاول مـــا اســـتطاع أن يستأنس بظلّه وإن كان لا يراه، إذ يكفي أنه هو يراه.

من زقاق جانبـــي طلع عليه أشرار. طالبوه بمـــا يحمـــل فحاول المماطلة. وإن كان قد ذهل وجزع فلمنـــاورتهم لـــه ولشعوره بأنه بوغت. وأما الخوف فلم يأسر قلبه إلا لاحقـــا وحين تأخر صاحبه في الظهور.

وثبوا عليه، وحاول التخلص منهم فانقلب ما بينـــهم إلى معركة حقيقية كان أمر الخاسر فيها محسوما سلفاً. شـــرع في

الصراخ وهم يكيلون إليه ضربات قاسية وموجعة، ثم أحـــس بحركة غادرة ومِدية تخترق جنبه الأيسر. وأخذ ينزف بينما هم يقلِّبونه قبل أن ينطلقوا هاربين.

-6-

جاهد يكبت ألمه فيما راحت دماؤه تسيح وتغطي الأرض حوله.

كان يتنفس بصعوبة. وما من حكمة يمكنها أن تلطف ما بات يحدسه. وفي انتظار ذلك الذي قد يأتي ولا يـــأتي محنـــة أخرى. وطال انتظاره حتى غشاه اليأس فغاب عن الوعي.

لاحقاً استفاق على شبح يقف عليه. شخص مظلم وبلا ملامح قام يغطي له وجهه بجريدة كان يحملها معـــه. ثم إنـــه انصرف عنه يتجاوزه بخطى وئيدة..

الفحل الذي أكل قلبه

في غرفته، في فندق "هيلتون" -أين كان مدعواً- بدا غير مهتم بالفتاة التي اصطحبها معه بجلوسه إلى طاولة المكتب. كان مرتدياً "تي شارت" رمادي كتبت عليه عبارة "إلى الأبد" بالانجليزية، و"شورت" داخلي بمربعات صغيرة بيضاء وسوداء، كما كان ينتعل خفا منزليا بني اللون، ويضع نظارة رؤية مقعرة لتقريب النظر، فيما هو مشغول بالكتابة مباشرة على حاسوب محمول مفتوح أمامه.

كأس الويسكي على جانب يده اليمنى يرتشف منه رشفات يبلل بها شفتيه في الغالب. يعترف أنه لا تحلو له الكتابة والسهر إلاَّ مع الشرب خصوصا إذا كان المشروب من النوع الممتاز وهدية من الجهة صاحبة الدعوة. كذلك فكرة السيجارة في يده تحفزه على الكتابة. اعتاد التدخين قبل تحذيرات الطبيب وإصابته بتصلب في الشرايين التاجية. الآن ولأنه تآلف معها يكتفي بها مطفأة يشغل بها يده ملتمسا تلك

الحالة النفسية التي تتيحها له. وكان إذا ما شعر بالضغط ووجد نفسه مجبراً أشعلها وشدَّ منها نفسا أو نفسين ليقوم بعد ذلك بسحقها في المنفضة.

لوهلة اعتقد أن ما سوَّده إلى الآن جيد ويستحق العناء، لكن وهو يعيد قراءته متأنيا اعتراه بعض القلق وشعر وكأنه ينقصه شيء. لمسه فاترا لا يمكن أن يَعلَق منه شيء في الذاكرة. فهو يشبه يوما عاديا لا حدث فيه مهم، وهكذا لا بد أن يُنسى في غمرة يوم جديد. وحاول بغريزته – وكما اعتاد – أن يتعرّف على وجه الخلل فيه.

كان كاتبا أصابته الشهرة مؤخرا وهو في نهاية العقد الخامس من عمره. فازت روايته "كوثر أقل" بجائزة دولية وترجمت لأكثر من لغة عالمية، وأما مجموعته القصصية "أقحوان لكل الأوقات" فلاقت رواجا وإقبالا كبيرا. كما تحظى اليوم مقالاته وكتاباته باهتمام واسع من لدن وسائل الإعلام.

ما يشعر به ليس بجديد عليه. فلطالما ألفه بطبعه المتشكك، ولاعتقاده أن اكتمال أي نص يبدأ بعدم الرضا عنه منذ ساعة الولادة، وإن كان ما يُغذي وساوسه ويذكيها ويجعلها أكثر حدّة هذه المرة شعوره بأن الوقت يداهمه. عليه أن ينتهي من كتابة قصة جديدة وأخيرة يدفع بها إلى النشر قبل الغد في التزام هو جزء من عقد مدفوع الأجر أبرمه مع مجلة "إبداع" الثقافية

ويقتضي منه تقديم عشر قصص قصيرة، قصة كل شهر.

راح يبذل جهده من جديد، وحاول ما استطاع أن يسترسل أكثر. فكرّ أيضا في عنوان مناسب لما يكتبه، لكن لم تسعفه قريحته بأي شيء. واضح أن هناك معاناة أخرى في الأفق. وهو وبحكم تجربته على معرفة واضحة بما سيحدث. أحيانا يحضر العنوان أولا ومنه يتمخض النص، وفي مرات عديدة يولد العنوان في خضم النص وخلال الكتابة أو يظهر مع نهايتها. كما يحصل أن يتيه عنه مرات ويعدو يلاحقه دون جدوى.

وحاول تجاوز شعوره بأنه محاصر. مؤكدا لنفسه أن العنوان سيحضر في أي لحظة. عليه ألاَّ يخشى شيئا. والتفت صوب الفتاة التي تقاسمه الغرفة، حتى إذا فعل كان كمن يكتشفها لأول مرة. ابتسم لها وشعّت عيناه ببريق عجيب. واكتسح ملامحه وهج غطى على كل تعبه وكدره.

انجذب إليها. ولا يمكن ادعاء أن ما حصل كان بسبب سحر الفتاة ما دام أنها برفقته منذ البداية. وإنما حصل الأمر بفعل رغبته، وعندما شاء أن يحرّرها أخيرا من عقالها. هكذا كان يفعل. يكبحها ويطلقها متى أراد. وهو إذا كان يتحكم بها فلأن هناك دائما بيض وافر في سلته.

فرك يديه كمقبل على وليمة دسمة. ودون مماطلة قام يقفز إلى السرير بجانبها. حينها مالت الفتاة نحوه، وراحت تستقبله

بقبلة طازجة ظلت تحتفظ له بها مذ جلس إلى المكتب وحاسوبه مشغولا عنها.

قبل ذلك كانت الفتاة لا تفتأ تنتظره ضجرة. ولتجاوز مللها وضيقها وحرجها انشغلت بهاتفها وراحت تتصفح مواقع التواصل الاجتماعي. كانت تفهم أنه ما دام على مكتبه ومستغرقا في أوراقه فعليها ألا تقلقه. تدرك خصوصية المبدع في هذه الحالة. تلك الخصوصية التي لن يرضى أن ينتهكها أحد. هو هناك ككلب حدّد حيزه ببوله، حتى إذا عمد إلى تجاوز تلك الحدود أيّاً كان ناله ما لا يرضاه.

أما الآن، وبعدما بات على السرير وإلى جانبها، فقد سألته هل تقرأ له شعرا كتبته حديثا. نظر إليها. وإن أدركت مغزى نظرته فإنها لم تكن مستعدة لتستسلم هذه المرة. إنها فرصتها التي لن تتكرر في أن تفتح معه الموضوع الذي يظل يشغلها. ولن يُرضيها إلا أن تقبض منه شيئا ذا بال. وسألته مخاطرة بإقلاقه:

– ولكن متى ستكتب لي تلك المقدمة؟ الناشر يستعجلني..

شُدت عضلاته كمن أصيب بلسعة حارقة. وقال لها وهو يحاول أن يخفي انزعاجه:

– ليس الليلة بكل تأكيد.

وأبدت تفهمها وإن كانت حذرة تجس كلماته لتعرف متى تمدّ الحبل ومتى تشدّه.

– أفهم. وأنا لا أطلب منك أن تفعل هذا الليلة. أريـــدك أن تقوم به متى سنح لك الوقت.

– حسنا، اتفقنا. سأرى ما يمكن عمله في أقرب فرصة.

كان هاتفها لا يزال في يدها، فأسقطته على الطاولة الليلية مستعدة للاستسلام له كليا.

– ما رأيك في المجموعة؟ هل حقا راقتك؟

– أكيد. سبق وأخبرتك بذلك.

– هل يمكن أن تخبرني ما الذي راقك فيها أكثر؟

– تبدين مستعجلة، وأفضّل أن تنتظري تقديمي..

– هل أزعجك؟

– أبدا.

– حسنا، هل ستنام الآن؟

– في حضنك طبعا..

لم تكن شهوانية ولا رخيصة ولا دنيئة ولا بريئة. كانـــت امرأة ترغب في النجاح بقوة لا غير. صحيح أنها حديثة الســـن قياسا به، ومع ذلك فإنها كانت تستعدّ لإطـــلاق مجموعتـــها القصصية الأولى: "قلب عجول".

كذلك كانت على قدر من الأنوثة والجمـــال. وكانـــت تحسن استغلال ما تملكه بما يكفل لها التقدّم في حقـــل الأدب المزروع بالألغام. كانت معروفة في الوسط الأدبـــــي، ولهـــا

نصوص منشورة في جرائد ومجلات مختلفة، كما كانت تظهر في وسائل الإعلام أكثر من الكاتب نفسه مستندة على شبكة من العلاقات مريبة. وهي إذ تقضي سهرتها معه هنا فلأنها صديقته وتريد أن تجازيه على وعده بكتابة تقديم لمجموعتها الأولى معتبرة ذلك ضريبة مقبولة ومقايضة عادلة، ما دام أنه سيعبّد الطريق أمامها ويجعلها لا محالة تتقدم خطوات مهمة وعملاقة. أما هو فقد كان بطبيعته المنفلتة والدونجوانية يشعر بالانجذاب نحوها، على أنّ هذا الانجذاب كان يشعر به نحو كل النساء الجميلات. يقع تحت سطوة فتنتهن، لكن ليس بنفس السرعة التي كن ينجذبن بها إليه. فهو في نظر كثيرات نجم، وأن يحظين به حلم بالنسبة إليهن. ثم من سيثبت العكس؟ من سيقول أن أوّل نص إبداعي لم يكن لأجل إغواء امرأة؟ بَرَكة الكتابة ونعمتها الوحيدة النساء. وهو متى وقف أمام أنثى فقدَ زمام نفسه و لم يعد يكبحه شيء. يندفع تقوده غريزته، ويحرص خلال ذلك ألا يتورط قلبه الذي أكله منذ زمن ونيف. هذا في صالحه. لا يرغب في أن يتعلق بإحداهن لأنه متى حصل ذلك وجد نفسه أمام التزامات هو في غنى عنها. ما يهمه اللحظة. وهي وحدها ما يشكّل متعته حتى إذا تجاوزها انتفى كل شيء طرديا. يكفيه ما يتحمله من أعباء. لا يزعجه أيضا أن تكون الفتاة وكما يشاع عنها عشيقة الجميع ما دامت هنا ومعه

الليلة. غدا ستكون هناك أخرى. وتبقى الوعود التي أطلقها لها مجرد تعلّة، كما يمكن اعتبارها كلاما سينتهي عند التسويف.

أخذت أصابع الفتاة تتلمس صدره وتبعث فيه بإشـــارات محفزة. تستثيره لتستيقظ فيه شهوة فاحشة هوجاء جارفة مثـــل الإعصار. ومع ذلك لا يمكنه أن ينسى حذره. لا يريد أن يبدو مبتذلا، شهوانيا وداعرا. عليه أن يداري شبقه غير مقتنع بدور الصيّاد. معه غالبا المرأة هي من يتودد. تتجاوز بذلك شعورها بالإهمال، وفي الحين نفسه يقوم هو بدور الترضـــية في تبـــادل صريح ومعكوس للأدوار. هذا جزء من لعبته المفضلة. كذلك في العادة يظلّ يقظا شاعرا بكل ثانية تمر. أن يعيش اللحظة لا يعني أن يضيع في الذهول وينفصل عن واقعه. لا ضير أن يكون حاضرا نصف نصف، ضائعا نصف نصف. ففي النصف مـــا يجعله راضيا، ليس لكونه قنوعا بل لأنه جبان جبنا يغلّفه دائما حين يسميه تعقلا.

يسحبها إليه أخيرا لتكتمل صورة الفحل لديـــه. الفحـــل الذي أكل قلبه. هكذا يرى نفسه. كما يصلح ما يراه عنوانـــا لقصته أيضا. يبدو مقبولا ويحمل المجازات المطلوبة. الآن يمكنه أن يقول إنه انتهى من تسويد قصته الأخيرة وتحرّر من التزامـــه نحو المجلة التي تستكتبه.

للتواصل مع الكاتب:

mohammeddjafar@hotmail.fr

ابتكار الألـم

محمد جعفر

- كاتب من الجزائر.

صدر له
- هذيان نواقيس القيامة - رواية
- مزامير الحجر - رواية

يا له من عنوان شبق: «ابتكار الألم» هذا الذي اتّخذه القاص الجزائري محمد جعفر عنوانا لكتابه القصصي. فالألم هنا وهو شعور أو انفعال يمتاز الكائن البشري بوعيه له، لا يقع فقط على ضحية، وليس مجرد قدر تعيس أو مفاجأة صادمة، ولكنه -ويا للغرابة- موضع بحث عنه واستدراج له، وإلى درجة يتم معها اجتراحه، أو «ابتكاره» على حد تعبير المؤلف ومن دون الوقوع في غواية المازوخية « تعذيب الذات».

وما يضيفه محمد جعفر في هذه الأضمومة، هو السرد الواقعي الذي يبدو في ظاهره تقريريا مباشرا يتجه إلى قارئ راهن وحاضر، فيما هو في واقع الأمر سرد زاخر بالظلال والمعاني التي تموج في ثنايا السرد، أو تضيئها اللقطات المتتابعة لبؤرة الحدث ولكل ما يحفّ بها عبر لغة مشرقة ودقيقة، لا محل فيها للتزيّد النصي أو الإغراق من الوصف، أو إثارة عاطفية «الميلودراما».

وبقراءة هذه المجموعة يتعرف القارئ على مبدع موهوب، يشق طريقه بأناة وثبات، وبخصوصية واقعية جديدة تستفيد من إنجازات السرد في العالم من حيث الإفادة من لغة الصحافة ومن اللقطات شبه السينمائية ومن كسر الحاجز «الوهمي» مع المتلقي. ما يجعل هذه المجموعة مدعاة للترحيب والاحتفاء بها.

محمود الريماوي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com
منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
جميع إصداراتنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com - www.nwf.com